L'Action Tunisienn

Hebdomadaire du Parti Libéral Constitutionnalis

Tunisien

158, Rue Bab-Souika · TUNIS · Tél. : 75.00

MIEUX VAUT TARD QUE JAMAIS

Les naturalisés reconnaissent leur err

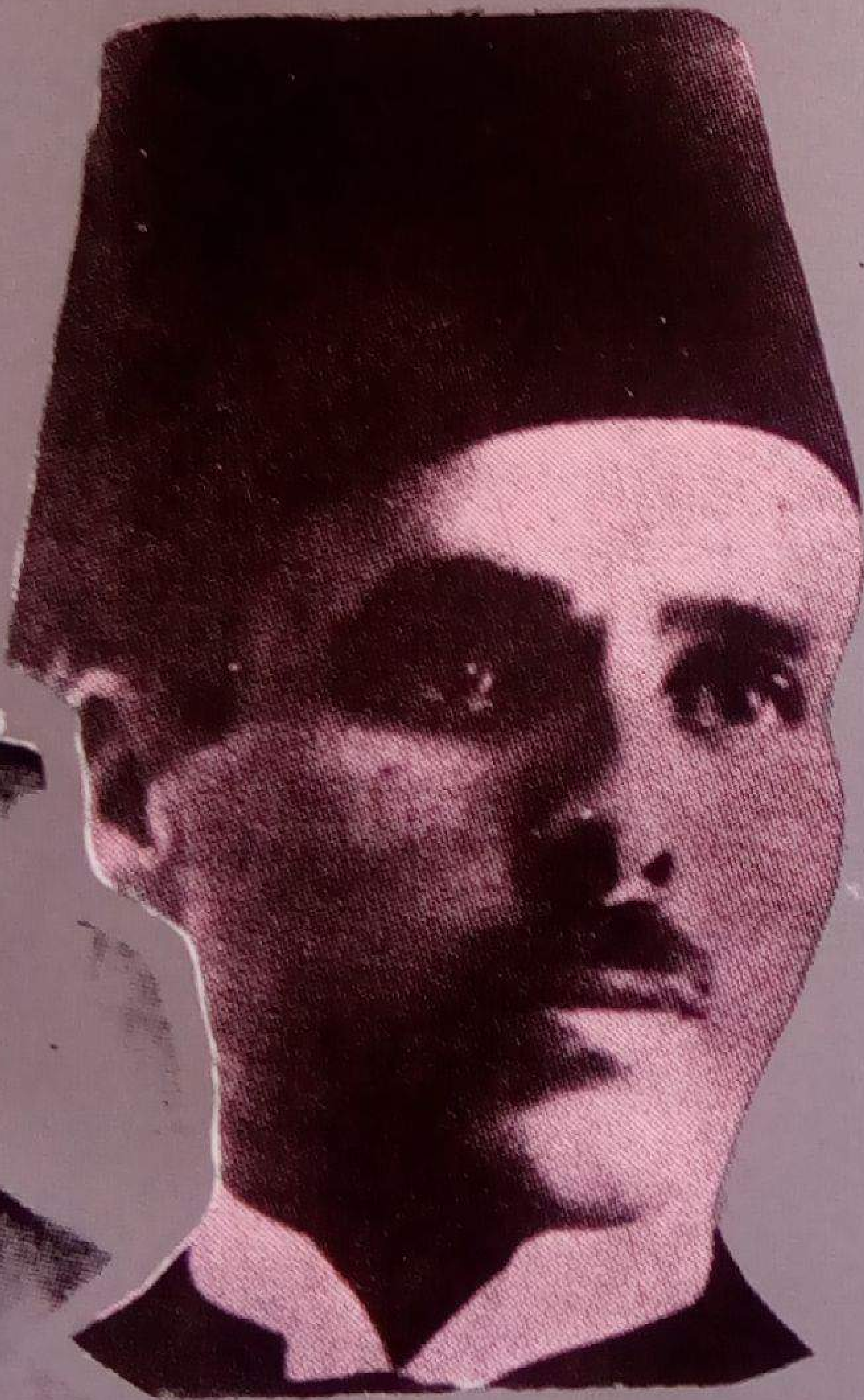
et veulent la réparer

et à M. le Président de la République Française, ils demandent leur réinté

dans la nationalité tunisienne pour redevenir Musulmans

des M. F. vote à l'unanimité une motion

ouverte à Son Altesse le Bey



معركة التجنيس

حمّادي بن حمّاد

مسرحيّة في ثماني لوحات

حمادي بن حماد

معركة التجنيس

شپوب

مسرحيّة فى ثمانى لوحات

تمهيــد

تقوم هذه المشاهد واللوحات على إرهاصات الملحمة البورقيبية الخالدة ، وعلى بادرتها الأولى فيما يعرف بمعركة التجنيس ، أردت أن أجسد بها كفاح هذه الفترة في عمل فني يظهر ما تخللها من أحداث ومواقف ، فلم أجد أفضل لمثل هذا التجسيد من الصيغة المطروحة هنا لإعادة كتابة هذا النوع من تاريخ تونس المعاصر .

وكان الشرط أمامي هو أن يكون نص هذه الإعادة فنيا ، وبشكل عمودي ، وبالنمط الذي يستميل القارىء أو المتفرج ، وهو تحريك المشاهد ، وتشخيص الأبطال والسير ، وكأنك تراها رأي العين !

لقد ثبت لي ، بما لا يدع مجالا للشك أو التردد ، أن طِرَادة تمثيلية جيّدة ، قد تصبح أبلغ أحيانا في العمل التاريخي من مجرد التداعي اللفظي المعتاد ، على معنى أن التاريخ أحداث صنعها الإنسان ،

وان مَسرَحَةَ هذا التاريخ في أجزاء منه مختارة على الأقل ، هي حركة تعيد العرض والتقمص والتدافع ، فتبدو ، وكأن الزمن يولد من جديد ، وكان التاريخ يعيد نفسه ! . . .

على اني لا أريد أن استرسل في إظهار ما لهذا النوع من الكتابة من قيمة ، فليس هذا من اختصاصي أصلا ، وإنما يكفيني أن أقدم الدليل وبواسطة هذا الاختيار على أن تاريخنا كله يبقى في الميزان ما لم نعد استقراءه والإفادة منه على نحو فني ، وعساني أكون قد مهدت الطريق أمام غيري من الكتاب والمشتغلين بالنص في بلدي ، ليلتفتوا إلى تاريخ تونس المعاصر ، وبالذات إلى الملحمة البورقيبية ، فيروا كم هي غنية بالدراما التاريخية ، حافلة بألوان الصراعات والمواقف بين قوى الخير والشر ، شأن كل رسالة سامية تتصل برقي الإنسان وتعديل منهجه على الدرب .

وكفاني أنني حاولت ذلك في هذا الأثر الأدبي ، فركزت على بداية الملحمة النضالية ، ورأيت على مسرح الواقع من قبل ، كيف صنعت الأحداث الأليمة المواقف ، وكيف صهرت معادن الرجال ، وكيف أفصح هذا المسرح عن ظهور القائد المرتقب . . . القادم حتما إلى ساحة المعركة . . . ليأخذ دوره القيادي المقدّر ، بين مظاهر الفرحة والمناصرة .

كنت أحس في قرارة يقيني أن عملاً كالذي قمت به هنا ، إنما يحتاج إلى الإيحاء والرمز ومجرد الإشارة ، لكني فضلت التعامل مع الأحداث نفسها ، ومع التراكمات التاريخية لتلك الفترة الرائدة الرائعة ، مع شيء من الاعتبارات الفنية كلما لزم الأمر . . .

ولست ادري هل وفقت في ذلك تماما أم نسبيا . . . فسأترك الحكم في ذلك للقارىء وللناقد وللتاريخ ذاته .

وبحكم الإنتماء والإلتزام ، كم شغلتني قيادة الحبيب بورقيبة لمعارك الحرية والأحرار في بلدي ، فكم هز النفوس وخلخل المعتقدات الفاسدة من جذورها ، وكم زلزل صروح الاستعمار ، وبدد الضباب المخيم في العقول حتى أجلى عنها الصدأ ، فأعاد للقيم النبيلة اعتبارها .

كما استوعبت الدرس البليغ الذي يمكن ان تقوم به جريدة في إيقاظ الهمم وشحذ العزائم ، وان التحرير في الصحافة يعني تحرير الأفكار والمنطلقات ، وان العلاقة جدلية تاريخية بين التحرير والتحرير ، بشرط الأمانة وصدق التوجه ووضوح الرؤية ، وبشرط القدرة على استخدام القلم كسلاح بدوره .

فلقد كانت جريدة « لاكسيون تونيزيان » في يد الحبيب بورقيبة ، سلاحا ومنبرا ، أثار به ثائرة المستعمرين ، وفتح به بصائر الشعب على واقع مهيض مريض ، وكانت هذه الجريدة ـ لو انصف التاريخ أكثر ـ واحدة من القلاع الصامدة ، التي أمطرت الخنوع والإستسلام من ناحية ، والاستبداد والخداع من ناحية أخرى ، فكشفت عما يدبر بليل ، في قضايا مصيرية عديدة لعل أهمها قضية التجنيس محور هذه المسرحية .

لذلك لم يتركها المستعمرون تواصل جهادها في الساحة ، فكانوا يصادرونها ، ويحجبونها عن الصدور في قراراتهم الظالمة ، وخاصة يوم 31 ماي 1933 أي ثمانية عشر شهرًا بعد تأسيسها حين أفلحت

في كشف القناع عن مؤامرة صليبية دنيئة ، ويوم التاسع من أفريل يـوم الفـداء والإستشهـاد . . . فكـانت واحـدة من أهـداف المستعمرين ، لا بد من ضربها وإسكات صوتها تماما . . .

وبهذه الجريـدة ـ كما يقـول القائـد ـ اكتشف الحبيب بورقيبة ذاته ، ومدى التأثير الذي يمكن أن تتركه كلمة صادقة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، كما اكتشف حاجة الشعب إلى قائد مثله يجمع شتاته ، ويوجهه ، ويخوض به المعامع ، خاصة وأن الملحمة ستكون سلسلة من المعارك متصلة الحلقات ، وان الإستعمار لن يستسلم بسهولة ، وانه حتى بعد أن يموت فستظل أصابعه تلعب !

ولا يمكن أن يفوتني ، وأنا أقيّم دور هذه الجريدة المجاهدة ، انها مهدت لعقد مؤتمر ، يبعث فيه الحزب من جديد ، على أساس المسؤولية التاريخيـة التي تنتظر الأحـرار والمناضلين ، وعـلى معنى الغربلة ، وإفراز الغث من السمين من الأفكار والمناهج وخامات الرجال .

قلت هذا من منطلق الصـدق والمسؤولية ، ومعـاصرتي لهذه الجريدة اليوم كمدير عنها ومسؤول ، فبقـدر ما سهلت لنا قيادة القائد مدارج الارتقاء إلى هذه المسؤولية وغيرها ، بقدر ما شعرنا بأن الأمر صعب بالمرة ، ولن يعيننا في تحمل هذه التبعة إلا الصدق والإخلاص والتفاني ، أمـا تقمص الدور الـريادي الـذي قام بـه الحبيب بورقيبة في صلب هذه الجريدة من قبل أو حتى محاولة التشبه به ، فذلك هو الحل الصعب في هذه المعادلة .

وقد ينصف التاريخ رجاله وصانعيه ، على دعوى أنه شيخ وقور

لا تهمه إلا السير العظيمة وجلائل الأعمال والأقوال . . . عندئذ يعتدل في جلسته ، ويغمس ريشته ويكتب !

على أن هذا الشيخ الأرستقراطي ، الذي هو التاريخ ، كان من قبل لا يتربع إلا في القصور والردهات الفخمة ، ليسجل للملوك والأباطرة والأقيال كل حركاتهم وسكناتهم ، وحتى حماقاتهم أيضا . . .

غير أنه اليوم ، ومنذ الزمن الأخير فقط ، قد بدل من هيئته ومن سلوكه ، عندما قوضت الممالك وانهارت القصور على رؤوس أصحابها ، فنزل إلى الشارع ، ومشى في الأسواق . . . يأكل مما يأكل الناس ، ويشرب مما يشربون ، ليرصد الكثير من الأحداث الجديدة والسير الخالدة !

والا ، فماذا ترونه يصنع هذا الشيخ الذكي ، وماذا يفعل بذكائه ، وقد رأى القصور تهدم ، والعروش تفل وتتهاوى . . . وملوك ازمنتهم ، وأباطرتها ، يساقون إلى المقصلات والمشانق ، أو إلى الخلع والتشريد في أحسن الحالات ودواعي الظرف والطرد . . . ماذا يفيده ذكاؤه إذا لم يستخدمه تباعا ، وقد سمع هتافات الحرية ، وأناشيد البعث الجديد ، ولمح مواكب الأبطال والرواد تموج في الساحات ، وتعيد صنع الأقدار على نمط جديد مغاير ؟! . . .

هاأني إذن ، من الذين يتعاملون مع هذا التاريخ ، وأتفاعل مع أحداثه الجسام ، امضي مع الملحمة البورقيبية ، وأغمس ريشتي في المداد مستقرءا الوقائع منذ بدايتها متصفحا ما يمدني به التاريخ الأمين

من ورقات قصار ، هي مجرد مسودّات بعد ، ورؤوس أقلام ليس إلّا ، يمدها معجبًا ضاحك السِّن وكأنه يفاخر بما سجل ودوّن .

على أن أحداث معركة التجنيس ، وان لم يلتفت اليها التاريخ التفاتته إلى ما أعقبها من مثيلاتها في الملحمة ، مثل محنة البرج وأحداث التاسع من أفريل 1938 ، ومنافي الصحراء والجزر والحصون ، ومثل المسيرة الظافرة والمعركة الحاسمة فيما بعد ، إلا أنه - أي التاريخ - ضمنها أوراقا مطوية في سجله الخاص دون ان ينشرها كلها على الناس ، فالتمست منه أن يمدني بها ولا عليه ، فإذا بها خطوط عامة ، بلا زَخم ولا مشاهد .

وكان عزائي الوحيد هو أن السيرة كلها لم تزل ماثلة في الأذهان ، وأن أغلب أهلها إحياء يرزقون ، واننا نحن أبناء هذا الجيل ، وان لم نعش تلك الفترة الزاهرة ، إلا أننا نتابعها من خلال احساسنا العميق بالفضل والامتنان للقائد ولملحمته الخالدة .

حمادي بن حماد

غرة جوان 1986

اللوحة الأولى

في البداية يكون الركح مظلما بعض الشيء ، وتُسمع موسيقى تصويرية لبضع لحظات ، وفجأة تنتشر الأضواء لتبحث عن فتاة قابعة في ركن مظلم من الركح ، ترتدي فستانا أبيض بوشاح أحمر ، تقف الفتاة في جلال . . . ترتفع الموسيقى ، ثم تنخفض . . . تتكلم الفتاة :

لا شيء يغلب إرادة التحرر . . لا شيء يقهر الأحرار ، فيصد الثوار عندما يدافعون عن الحرية المسلوبة وينافحون عن الكرامة المهانة .

تأتي أصوات صارخة من بعيد ثم تقترب
بالتدريج . . الأصوات تنادي : **القصاص**
للشهداء ، الحرية ، الكرامة ، العزة ، لا
استعباد بعد اليوم ، لبيك يا بلدي . . . .
يغلب الضجيج على المشهد : تصخب
الموسيقى . يردد هذا النشيد كل
فرد في المجموعة

الأصوات : غمرَ الفجرُ ربوعَ المشرقِ
ويدا النورُ وضيءَ المفرقِ
نحنُ أقسمنا على أن نلتقي
في كفاح المستميت الواثقِ
يا فرنسا أين الحانُك
هـلِ صـارت زيوفـا
أذكـري لما شَرِبْتِ
ألمرّ في الحرب صنوفا
ان نَسِيتِ اليومَ .... نَسْيَ الآبِقِ
أو تغافلـتِ .... فمهـلاً وثقي
نحن أقسمنا .... على أن نلتقي
في كفاح المستميـت ... الواثـق

. . . .

ينفرد صوت من المجموعة يردد بقوة :

أيها الأحرارُ اشهـدوا
ما ذُقته في مَشْهدي
أيهاالثـوارُ زيدوا مـن
صراعِ المستبد المعتدي
ان الاستعمارَ لا يرتد
إلا مـن كَمِيٍّ أمجـدِ
جاد بالروح وضحّـى
بالعزيـز الأوحـدِ

. . . .

الأصوات تردد من جديد :

لا يعيشَ الحر .... عيشَ الموثَق
والمنى تجري .... بكـف الآبِق
نحن أقسمْنا .... على أن نلتقي
في كفاح المستميت .... الواثـق

تبتعد الأصوات ... وهي تردد من جديد :

غمر الفجرُ ربوعَ المشــرق
وَبدَا النورُ وضيءَ المفرق
نحن أقسمنا على أن نلتقي
في كفاح المستميت الواثق

تخفت تماما حتى تموت في البعد ... تختفي الأضـواء ليعود الـركح إلى ظلامه ... تلوذ الفتاة بركنها ... وتركز الأضواء عليها لتبدو وكأنها تجلس على صخرة ، يسود الصمت ....

يسدل الستار

المشهد

صالون وثير ، نخبة من الوجهاء ، تتجاذب أطراف الحديث ، فيهم محام ، وصحفي ، وكاتب قصة ، وشاعر ، وشيخ من الأعيان .

الصحفي : (وهو يقرأ في جريدة) حقا ان هذه الجريدة لمثيرة ، مقالاتها على جانب كبير من الخطورة . وإنّ أخشى ما أخشاه هو أن تعمد الاقامة العامة إلى مصادرتها .

الشيخ : أي جريدة تعني ؟

الصحفي : الجريدة التي أصدرتها أخيرا ثلة من الشبان بعد أن حدثت قطيعة بينهم وبين الصحيفة التي كانوا من أسرتها .

الشيخ : وماذا في هذا المقال الذي تقرؤه .

الصحفي : فيه ما فيه ، انه يندد بالفتوى التي أصدرها رجال الشرع في شأن المتجنس بالجنسية الفرنسية دون أن ينسلخ عن دينه ، فالمقال يعتبر أن تجنس التونسي في هذه الحالة ، هو تنكر للشريعة الاسلامية ، مستدلا بالآية الكريمة :

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

المحامي : فعلا لقد قرأت هذا المقال ، انه على جانب كبير من الخطورة ، يحمل تهجما ، لا على الأئمة فقط ، وانما على المقيم العام الذي عمد إلى استصدار هذه الفتوى من كبار المشايخ .

الشيخ : انه التهور بعينه ، ودعوة إلى العصيان والتمرد ، وما ضر صاحب المقال لو اهتم بأمره ، وترك لأهل الذكر أن يتصرفوا كما يشاؤون .

كاتب القصة : إني لأرى خلاف ذلك ، فمؤامرة المقيم العام قد ظهرت جلية واضحة المعالم ، خاصة وأن الحكومة الفرنسية قد اتخذت اجراءات متعددة لإغراء الغُفْل من أبناء وطننا باعتناق الجنسية الفرنسية ، لِمَا خَصَّت به المتجنس من امتيازات وحظوة وتفوق على التونسي ، المعتز بدينه ، المحافظ على ذاتيته .

ألم يبلغك بعد أن أحد أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية قد قدم استجوابا لحكومته عن سبب بطء سير حركة التجنيس إذ لم ينضم منذ صدور القانون الصادر في هذا الشأن بتاريخ 1923 سوى عشرين ألف مسلم . وقد حث العضو المذكور وزير خارجية فرنسا على ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لفتح باب التجنيس على مصراعيه في تونس .

الشيخ : لم اسمع بهذا ، على أن الأمر كله ترهات ! ولا يستدعي كل هذا الضجيج .

الشاعر : ترهات !؟ وهل يعجبك الحال حتى يمكن السكوت

عليها . ألم تر إلى الظالم وقد أخذ ، لا برقاب الناس فقط ، يسومهم الخسف والهوان ، ولا أحد يرفع صوته . . بل زاد الطين بلة فانقض على البقية الباقية من كرامتنا يريد أن يطأها بقدميه ؟

الشيخ : أراكم مثل كل مرة ، منذ أن صدرت هذه الجريدة ، ولا حديث لكم الا عما تكتبه وتثيره في الناس وما تشيعه من بلبلة ، تدفعوننا في كل أمسية الى طرق مسائل شائكة من شأنها أن تجر الى ما يحمد عقباه .

المحامي : هون عليك ، فالحديث ذو شجون بل ان لقاءاتنا لابد أن تسوق حتما الى مثل هذه المواضيع ، خاصة وأن الناس في كل مكان لا حديث لهم إلا عن التجنيس . وقد بلغني أن هنالك عزما على التصدي لمحاولات دفن المتجنسين في المقابر الاسلامية ، وان المقيم قد أعد العدة لمجابهة هذا العزم مهما كانت النتائج .

علمت أيضا من أحد أصدقائي المحامين أن الاقامة العامة بصدد اصدار أوامر تقضي بإبعاد كل شخص يقوم بأي عمل أو أية دعاية ضد نظام الحماية .

الصحفي : انه التحدي بعينه .

الشيخ : بل قل انها الكارثة ، فلولا هذا الشعب الذي أثارته هذه المقالات لكنّا اليوم بعيدين كل البعد عما يتهددنا من أخطار ! فماذا جنينا ؟!

الشاعر : بل قل انه أمام هذا الجبروت الاستعماري ، قد تخاذلنا جميعا في هذا البلد المسكين ، وكنا من الجبناء ولا فخر ، أمام محاولات النيل من كرامتنا ، حتى لكأن أرضنا اقفرت من الرجال ،

ولم يبق إلا هـذا الصـوت الجـديـد ، الشـاب ، الممتلىء فتـوة وعزيمة . . . صوت صاحب هذه المقالات التي نقرؤها اليوم ! لقد كانت له بحق الجرأة الكافية لكشف هذه الخديعة ، وإماطة اللّثام عنها . . .

المحامي : لا جدال في أن الخطر محدق بنا .

الشيخ : قلتم أن عددا كبيرا من التونسيين قد تحللوا من الجنسية التونسية ، وان عشرين ألفا اعتنقوا الجنسية الفرنسية ؟

الصحفي : أجـل ، بلغ عـددهم حتى الآن عشـرين ألف شخص ، وستة آلاف جدد منذ ابتداء هذه الحملة الشيطانية .

الشاعر : ستة آلاف جدد ، يا للكارثة . معنى هذا أننا سنجد أنفسنا بعد عقد من الزمان وجيز في طوفان من المتجنسين . . . يا للهول !

المحامي : ليت الأمر وصل الى هذا الحد ، بل لنتذكر أيضا تلك القرارات الخرقاء الصادرة عن المقيم العام للإستحواذ على مزيد من الأراضي الخصبة لفائدة الاطماع التوسعية للمعمرين .

كاتب القصة : يجب الرد على هذا الفعل الشائن بعمل شعبي فتوقف سياسة التفقير والاستحواذ على خيراتنا ، فلو تمادينا في مواقفنا السلبية لأصبحنا نحن الأجانب في بلادنا وهم أصحاب البلاد .

الشيخ : أي رد فعل تعني ، ما عسانا فاعلون والأمر كما ترون ، فهل للكف أن تعاند الأشفى ! أم تريدون أن نكون :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فما أَضَرَّها وأوهى قرنَه الوعـلُ

عليها . ألم تر إلى الظالم وقد أخذ ، لا برقاب الناس فقط ، يسومهم الخسف والهوان ، ولا أحد يرفع صوته . . بل زاد الطين بلة فانقض على البقية الباقية من كرامتنا يريد أن يطأها بقدميه ؟

الشيخ : أراكم مثل كل مرة ، منذ أن صدرت هذه الجريدة ، ولا حديث لكم الا عما تكتبه وتثيره في الناس وما تشيعه من بلبلة ، تدفعوننا في كل أمسية الى طرق مسائل شائكة من شأنها أن تجر الى ما يحمد عقباه .

المحامي : هون عليك ، فالحديث ذو شجون بل ان لقاءاتنا لابد أن تسوق حتما الى مثل هذه المواضيع ، خاصة وأن الناس في كل مكان لا حديث لهم إلا عن التجنيس . وقد بلغني أن هنالك عزما على التصدي لمحاولات دفن المتجنسين في المقابر الاسلامية ، وان المقيم قد أعد العدة لمجابهة هذا العزم مهما كانت النتائج .

علمت أيضا من أحد أصدقائي المحامين أن الاقامة العامة بصدد اصدار أوامر تقضي بإبعاد كل شخص يقوم بأي عمل أو أية دعاية ضد نظام الحماية .

الصحفي : انه التحدي بعينه .

الشيخ : بل قل انها الكارثة ، فلولا هذا الشعب الذي أثارته هذه المقالات لكنّا اليوم بعيدين كل البعد عما يتهددنا من أخطار ! فماذا جنينا ؟!

الشاعر : بل قل انه أمام هـذا الجبروت الاستعـماري ، قد تخاذلنا جميعا في هذا البلد المسكين ، وكنا من الجبناء ولا فخر ، أمام محاولات النيل من كرامتنا ، حتى لكأن أرضنا اقفرت من الرجال ،

ولم يبق إلا هـذا الصـوت الجـديـد ، الشـاب ، الممتلىء فتـوة وعزيمة . . . صوت صاحب هذه المقالات التي نقرؤها اليوم ! لقد كانت له بحق الجرأة الكافية لكشف هذه الخديعة ، وإماطة اللّثام عنها . . .

المحامي : لا جدال في أن الخطر محدق بنا .

الشيخ : قلتم أن عددا كبيرا من التونسيين قد تحللوا من الجنسية التونسية ، وان عشرين ألفا اعتنقوا الجنسية الفرنسية ؟

الصحفي : أجـل ، بلغ عـددهم حتى الآن عشـرين ألف شخص ، وستة آلاف جدد منذ ابتداء هذه الحملة الشيطانية .

الشاعر : ستة آلاف جدد ، يا للكارثة . معنى هذا أننا سنجد أنفسنا بعد عقد من الزمان وجيز في طوفان من المتجنسين . . . يا للهول !

المحامي : ليت الأمر وصل الى هذا الحد ، بل لنتذكر أيضا تلك القرارات الخرقاء الصادرة عن المقيم العام للإستحواذ على مزيد من الأراضي الخصبة لفائدة الاطماع التوسعية للمعمرين .

كاتب القصة : يجب الرد على هذا الفعل الشائن بعمل شعبي فتوقف سياسة التفقير والاستحواذ على خيراتنا ، فلو تمادينا في مواقفنا السلبية لأصبحنا نحن الأجانب في بلادنا وهم أصحاب البلاد .

الشيخ : أي رد فعل تعني ، ما عسانا فاعلون والأمر كما ترون ، فهل للكف أن تعاند الأشفى ! أم تريدون أن نكون :

كناطح صخرة يوما ليوهنها

فما أضَرّها وأوهى قرنَه الوعـلُ

الشاعر : موقفك هذا يدل على تأزم في النفس ، وهو موقف كله بأس وقنوط واستسلام .

ألا ترى أننا في حاجة ماسّة إلى الكلام النافع المؤثر الذي يذكي فينا جذوة الحماس . إلى الشعر الذي يؤجج النار الخامدة في النفوس فتزكو لتبحث عن مكانها في هذا العالم . علينا يا شيخ ألا نـرهب أحدا والا نقدر موقفا هو من الظلم بمكان . علينا أن نضع لكل أمر حسابه . فالظالم يخاف غائلة طغيانه إذا وجد من يقاومه .

يقول شاعر التحدي ما معناه :

كسِّروا الأقلامَ هل تكسيرُها
يَمْنَعَ الأيدي أَنْ تَكْتبَ وِزْرَا
اِقْطَعُوا الأَيْدِي هَلْ تَقْطِيعها
يَمْنَع الألْسنَ أَنْ تَنْطِقَ هُجْرا
أَسْكِتُوا الأَلْسُنَ هَلْ إِسْكَاتُها
يَمْنَعُ الأَعْين أَنْ تَنْظَر شِزْرا
افقأوا الأَعْينَ هَلْ تَقْلِيعُها
يَمْنَعُ الأَنْفَاسَ أَنْ تَخرجَ زَفْرا
اكتموا الأنفاسَ هذا دأبُكم
وبه منجاتنا منكم فشكرا

المحامي : وهل الشعر وحده يكفي لشحذ العزائم ، ينبغي أن تقوم في بلادنا حركـة تحريـر قويـة تنهج للعمـل الجاد والتخـطيط المحكم .

الشيخ : ماذا تقصد ؟

المحامي : يجب ألا نسكت عن هذه القرارات الجائرة .

كاتب القصة : (وهو يتصفح الجريدة المشار إليها)ان ما تقوم به اليوم هذه الجريدة في تهيئة الرأي العام وتجنيده لأمر بالغ الأهمية .

الشيخ : ما دخل الرأي العام في قضايا ليست له فيها القدرة على فهمها ؟ . . . انكم بهذه المواقف سترمون بنا الى الفوضى ، وإلى الاضطرابات .

المحامي : نحن نخبة القوم وعلينا ان نفكر مليا في إيقاظ هذا الشعب من سباته العميق .

الشيخ : ما هذا الكلام (يتظاهر بالخروج مبديا إمتعاضا) . إننا جئنا الى هذا المكان لنتحدث وكفى . . . فليس لنا أن نغير من الأمر شيئا . . . قولوا بربكم هل لديكم قوة تستطيعون بها الوقوف في وجه دولة عظمى كفرنسا . . .

انصتوا لي جيدا يرحمكم الله . . . ان عزاءنا الوحيد من كل ما حل بنا من مصائب هو أن نُوكل أمرَنا إلى الله . . وان ننفس عن كربتنا في هذه الخلوة ، وَنَفي لذات أنفسنا بالترويح مما تضيق به صدورنا . . .

الشاعر : يا له من موقف . . . (يتجه إلى أول الركح) . . انها التعاسة بعينها . . لا عمل لنا الا اجترار الأحاديث ، وشرب الشاي . . والتفرج على المشهد الدامي ولسان حالنا يقول :

الجلوس على الربوة أسلم !

ثم متوجها الى الشيخ بشعر كان سائدا في زمانه :

أين التجارةُ والزراعةُ والحرفْ
أين التمدنُ والوظائفُ والشرفْ
لم تلفَ الا الأجنبيَّ بها اتَّصَفْ
دون الأهالي شأنَ كلٍّ من استخَف
دَعْواهُمو التمدينُ لا يوماً يقفْ
فإذا الحمايةُ مصدَر الاجرامِ

. . . .

أين المدارسُ درةُ التعليمِ
والجامعاتُ دِعامةُ التنظيمِ
لا شيء مما قد ذكرتُ قد استشف
فإذا الحماية مصدر الإيلام

المحامي : لقد صدقت يا أخي . . . يجب ان نستخلص العبرة من كل ما يجري . حتى إذا ظهرت حركة تحريرية جديدة على الساحة ، بادرنا بتأييدها والانضمام اليها . . وهذا هو قدرنا .

الصحفي : إنني لم أيأس بعد من ظهور القائد الذي على يديه يتحرر هذا الوطن فيسير ابناؤه في ركب الاحرار .

كاتب القصة : كأني بالحالة ستتغير ، لقد تأزمت الأمور في البلاد الى حد لا يحتمل ، بات معه التغيير أمرا وشيكا .

الصحفي : لدي فكرة . . .

الجميع : ما هي ؟ . .

الصحفي : ما قولكم لو ذهبنا بعد حين الى مقر هذه الجريدة الحديثة العهد فنؤدي زيارة الى أسرة تحريرها ، ونتعرف على صاحب هذه المقالات الشجاعة . . . .

المحامي والشاعر وكاتب القصة : (معا) موافقون .

الشيخ : (يرتدي برنصه) تذكرت يا جماعة ان لدي أمرا عاجلا في (الدريبة) . . . وقد أضطر بعد ذلك الى الذهاب الى (الهنشير) لدفع أجور العملة !

الشاعر : (في سخرية) لا تطل الوقت في الحقل . . فعروسك الجديدة في انتظارك !

يسدل الستار .

اللوحــة الثانية

يـزاح الستار عن ركـح مـظلم بعض الشيء ، تنبعث مـوسيقى وطنيـة حماسية ، تضاء الأضواء تدريجيا .. تظهر الفتاة قادمة الى أول الركح .

وعلى صدى الموسيقى تقول :

« ان ما كتبته الجريدة المجاهدة التي صدرت في هذه الأيام حول عدد من المواضيع الجادة ليفصح عن منهج صاحبها في تفضيـل العمل الايجابي على مجرد القول ومجرد الاستنكار وإبداء الامتعاض والتذمر . حتى لقد غدت هذه الجريدة منبراً لحمـلات مركـزة في مقاومة الاستعمار تفضح أساليبه وتدعو إلى تقويض صرحه .

فبعد مقالات عديدة حيث رجع الكاتب بالمشكلة الاستعمارية الى جوهرها ، ها هـو ذا يثير الـرأي العام في سلسلة متتـابعة من المقالات حول قضية التجنيس ، وبذلـك يصيب كبد الحقيقـة ، ويكشف عن الوجه القبيح لهذا الاستعمار المتسلط الغشوم .

على أن الشعب قد استجاب لهذه الدعوة الصادقة فهب يدافع عن كيانه المهدد في الصميم ، وقد ألهبت حماسه هذه المقالات ، فأدرك ما يبيت له من غدر وتطاول .

. . . يظلم الركح من جديد ، تختفي الفتاة بحركة بطيئة . . . تظهر أصوات لمظاهرة صاخبة قادمة من بعيد . . . تأخذ في الاقتراب . . . وقد علا صوتها على المكان .

يسدل الستار

المشهد الأول

يكتظ الركح بالمتظاهرين ... تتعالى الأصوات منادية ... « الويل للكفار » ... « لا للتجنيس » ... « الله ينصر دين الاسلام » ... « الإسلام ديننا » . « الويل للمتجنسين » ... « الموت لاعداء الدين » ... « تونس عربية مسلمة » ...

تسمع من بعيد خطوات عسكرية منتظمة ، تقترب هذه الخطوات شيئا فشيئا .. تتصاعد المظاهرة بأكثر شدة .. طلقات رصاص تدوى في الفضاء .. المتظاهرون يزدادون حماسا ... يُسمع ركض لخيول تمر سريعة ....

متظاهر : لا نقبل اطلاقا أن يدفن ذلك المتجنس اللعين في مقابرنا ..؟

متظاهر آخر : هيهات أن يتم ذلك . . .

متظاهر ثالث : لن يمر نعشه إلا على جثثنا إن أرادوا . . . .

آخر : (يقوم فيهم خطيبا) أيها الناس . . . يا معشر المسلمين ، انها المؤامرة . . . إنها المكيدة . . . الاستعمار يريد محقنا من الوجود ، يريد ابتلاعنا ومحو ذاتيتنا ، ويريد أن يجعل من بلادنا ، تونس العزيزة ، أرضا مسيحية الى الأبدِ ، ومن شعبنا المسلم رعايا لا شأن لهم .

وهذه الدعوة الشيطانية الى التجنيس ، ينقاد لها ضعفاء النفوس ، والوصوليون ، ومن اهتزت عقيدتهم . . . طمعا في كسب رخيص . . .

إن أمثال ذلك المتجنس لن يهنأ في قبره . . . وقد خلع عنه بردة الاسلام ، وارتدى مسوح الكفار . . . لن نترك أبدا هذه الجثة النجسة تدفن في مقابر المسلمين من أصحاب الملّة السمحاء . . . والّا فقل علينا العفاء . . .

فلنتحرك جميعا الى المقبرة لنحول دون هذا الدفن ، ونعلنها حربا شعواء على كل من يريد أن يمس بديننا وكرامتنا .

أيها الناس ، يا معشر المسلمين الشرفاء . . . لنتصدّ إلى هذه المؤامرة الخبيثة . . . لقد بلغ السيل الزبى . . .

يسمع من بعيد أزيز المصفحات وهي تتحرك . . يقترب هذا الأزيز . . . فجأة تهجم على المتظاهرين قوات من الشرطة ورجال الدرك واللفيف الأجنبي . . يحدث الاصطدام .

المتظاهرون : (ينادون) الله أكبر ، الله أكبر ، فتح ربي ونصر ، وأعز من آمن وأذل من كفر . . . .

تختلط الأصوات . . . ويختلط الحابل بالنابل . . . .

يسدل الستار .

المشهد الثاني

نفس الساحة التي شهدت المظاهرة . . . المكان مقفر ، الأضواء خافتة ، يخيم الأسى ، تظهر متناثرة في الأمكنـة منها ، هنـا وهناك ، بقـايا أحـذية وعصي ، وحجارة ، وما شابه ذلك .

ويظهر في جانب واضح من الركح ثلاثة أشخاص يغلب عليهم الحزن ، يجلس الأول على أكداس من الصناديق ، ويبدو الثاني مستلقيا على الأرض ، بينما الشخص الثالث يذرع المكان جيئة وذهابا .

الأول : يا له من يوم مشهود . . . لم أكن أتصور قط أن ينهض الشعب في تونس ليدافع بهذه القوة عن ذاته وكيانه !

الثاني : وماذا جنينا في هذا اليوم سوى الاستفزاز والعنف . . . لقد أصيب منا الكثير بجروح ، وزج بالعديد في السجون . . . حقا لم أكن من ناحيتي اتصور ان يرد جيش الاستعمار بهذه الشدة على مظاهرة سلمية . . . أردنا بها فقط أن نعلن عن إستنكارنا لقرارات

جائزة تمسنا في الصميم . . . .

الثالث : السبب هم ادعياء الدين ، من الذين عمدوا الى إصدار فتوى المجاملة التي استصدرها منهم المقيم العام . ما كنت أتصور بدوري ان يصل بهم الخذلان إلى هذا الحد .

الأول : إن ديننا واضح في أمر كل من يصبأ عن دينه . . . وبشكل ما . . . فلقد قرأت في الجريدة التي علا صوتها في المحافل مقالا يثبت تفسير البيضاوي للآية الواحدة والستين من سورة النساء ، الصريحة بكفر من خرج طوعا من الدين الاسلامي .

الثاني : الغريب في الأمر . . . إن هذا التفسير يعرفه جيدا هؤلاء العلماء الموظفون ، وطالما درّسوه لطلابهم بالجامع الأعظم . .

الثالث : علماء موظفون !؟ . . . بل قل انهم موظفون أكثر منهم علماء . . . . خضعوا لأولي الأمر ، واستجابوا لدعوتهم الباطلة . . . فياله من خضوع وخذلان !

الأول : لابد من صحوة لكل الأئمة . . ليحولوا دون شيوع هذه الفتوى المبطلة ، وأن تستيقظ ضمائرهم ما أمكن ، وعلى الباغي تدور الدوائر .

الثاني : سمعت أن منهم من يعتزم ابداء رأيه في فتوى أخرى مغايرة يوجهها الى الباي . . . لتفنيد مزاعم هؤلاء العلماء الموظفين لعدم مطابقة فتواهم لنصوص الشريعة .

وسمعت أيضا انهم يعتزمون نشر هذه الفتوى المنتظرة لتبرئة الشريعة وتبرئة الأئمة في تونس لدى الرأي العام العالمي الاسلامي . . لما له من حق في محاسبتهم عن كل ما يصدر عنهم .

الأول : لكأني أحس ، يا اخواني منذ هذا اليوم ، بأن الأمور تتبدل ، وكأن هناك قوة محركة جديدة تدفع بالشعب الى الاستفاقة . . ولا أعتقد بعد مظاهرة اليوم ، أن يجرؤ أحد من هؤلاء المتجنسين . . حتى على الظهور في الشارع ، فضلا عن تباهيه وتفاخره باكتسابه الجنسية الفرنسية .

الثالث : صحيح ، فحتى مجرد اشاعة بوفاة متجنس من هؤلاء ستكون كافية لدى الشعب لابداء سخطه على سياسة اتسمت بسوء الفهم .

الأول : ولن تستطيع القوة الغاشمة ولا ذلك الجنرال المتعجرف الذي قاد تلك العمليات بنفسه ، أن يكبت في الشعب صوته المدوى ورغبته في أن يحافظ على كيانه .

(يدخل الركح شاب وهو يهرول ويصيح بأعلى صوته قائلا :)

هل سمعتم ما جرى ؟ . . . لقد انتشرت حمى المظاهرات في عدد كبير من المدن والقرى . . . حيث نزل الشعب الى المقابر ، لمنع دفن المتجنسين .

. . . وقد بلغني ان المقيم العام قد أذن بتسليط الأضواء الكاشفة على المقابر . . . . حتى لا تنبش القبور ليلا . . .

الثاني : يالها من فضيحة تلصق بعائلات المتجنسين أبد الدهر ! . . . وياله من عار يلحق بالاستعمار . . .

الثالث : أين هؤلاء الذين أوهمونا بأنهم قادة . . . أين هي مواقفهم وصحفهم واقلامهم ، ولماذا لم ينبروا للتنديد بهذه المجزرة ؟ . . . . انه الجبن والنكوص على الأعقاب . . . في وقت

يفرض عليهم فيه ان يكونوا في طليعة هذه المعركة .... يؤججونها ، ويوجهونها لفائدة القضية الوطنية .

تعم الركح جمهرة من المتظاهرين الصاخبين ، تأخذ في التجمع حول الفتى يناوله أحدهم كرسيا يعتلي هذا الشاب الكرسي ، وقد اشتدت نبرات صوته ليقف في الجمع خطيبا :

- أيها الناس ... ان مما يثقل على النفس ، هو موقف الأحزاب وقد تخاذلوا في نصرة الحق ، فأين هم من هذه المعركة ، أين هم من الحق الواضح الصريح ؟ ... يزعمون انهم قادة ، وان لهم وحدهم الحق في أن يقولوا كلمة الفصل ، ضاربين كل من يعارضهم ، متهمين إياه بالطيش وبالمروق ، أفلا يعلم هؤلاء انهم - بمحاولاتهم دوما اطفاء النار - انما يخدمون هدف الاستعمار ، شاؤوا أم أبوا ... لقد تجلت مواقفهم الهزيلة ، لكل ذي عينين ، وان تخاذلهم البين هذا لهو أشد وقعا على نفوسنا . نحن ابناء الشعب ، من ضغط الاستعمار ...

إن علينا منذ اليوم الا نستمع الى ترّهاتهم ... فكل ما يقولونه قبض الريح ولن تنطلي علينا مناوراتهم بعد اليوم .....

كونوا صفا واحدا أيها الناس أمام من يؤجج صدورنا للموت في سبيل الوطن . لا تنخدعوا .... ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ...

(الجمع المحتشد يهتف) لا للهدوء والسكينة ، لا للخداع والجبن ، الويل لزعماء الورق .... زعماء المنابر والصالونات

والكراسي الوثيرة . (يتكلم الفتى الخطيب ثانية) أجل الويل لهم . . . ولمنابرهم ، ولما يتخرّصون به من أقاويل كاذبة . . . لقد خدعونا طوال السنين الماضية بكلامهم المعسول ، الأجوف ، ونصبوا أنفسهم زعماء ينددون ويهددون . . . لكن ينددون بمن ويهددون من ؟ . . . . انهم يهددون كل شخص مخلص أحسوا منه خطرا عليهم ، فيناددون به ويلصقون به التهم . . . لكن الشعب اليوم قد ادرك الحقيقة بحسه الصادق ، عرف ان هؤلاء الزعماء يخشون على مصالحهم وعلى سلطانهم ، فلا قضية الا هذه المصالح ، ولا معركة ولا دفاع الا عن هذا السلطان . . . . فنهتف بسقوط الزعامات المزيفة . . . . الزعامات الخرقاء . . .

الجمع : تسقط الزعامات المزيفة . . .تسقط الزعامات المزيفة . . .

الخطيب : والآن علينا واجب تحطيم هذه الأصنام . . .

الجمع المحتشد : تسقط الزعامات المزيفة . . . . لنحطم أصنام الزيف والخداع . . . الله أكبر ، الله أكبر . . . الويل للمتجنسين . . .

تبتعد أصواتهم بهذا الهتاف المدوى ، ليصبح مجرد صدى في الأعماق . . . وذلك حين يسير الجمع في طريقه .

يسدل الستار .

اللوحة الثالثة

الفتاة جالسة على حجر منزو بالجانب الأيمن من الركح ، أضواء تتحرك ثم تسلط غليها من فوق تنهض الفتاة ، تنشط الموسيقى ثم تعود حالمة ، تقول الفتاة :

كل ما مرّ الآن ليس الا جانبا من حتمية الصراع ، والبذرة الأولى له . . ولقد كان من الممكن ان يحدث خلاف هذا ، وان تسير الحياة على نمط آخر ، لو لم تتقبل العقول الأفكار الجديدة المغايرة ولو لم تكن هناك ارادة وتضحية وصبر . . . بل ان الأمر هنا لم يكن وقفا على اصطلاح الناس على أمر ، وانما لوجود شق آخر كذلك ، شق يدافع باستماتة عن مكاسب لا يرى الحياة الا من خلالها ، فكان على استعداد للمبادر- -حيه الضربات حتى يُشعر خصمه بأنه يقف على أرض صلبة .

إن دولة الظلم لن تعمر طويلا ، وان دولة الحق لباقية . لقد رأينا

كيف ان أحد الجوانب في هذه القضية هاله ان يؤول أمر البلاد والعباد إلى أسوأ حال ، وقد أبدى ازاء ذلك القلق الشديد بدافع من شعوره الوطني ، لكنه كان فاقد القدرة على التحرك المنظم والجدي .

مع انه يسعى جاهدا ، لاكتساب هذه القدرة في كل الاتجاهات حتى يتسنى له أن يضرب هنا وهناك .

تتحرك الفتاة إلى مقدمة الركح تعود الموسيقى شجية . صوت المجموعة الغنائية :

ملاك الرّب في الحلمِ
يناديِ الشعب في السلم
يناديه من النجم . . .
الا انهض . . . حرِّر الأرضا
. . . .
وجالدْ يومَك الأفرق
وغالبْ شر من يُهْرِق
ليبقى منهما الأصدق
وتحيـا عاليَ المفرق
الا انهض حرر الأرضا
وصُنْ ما دونَك العِرضا
. . . .
لقد جان الصراعُ اذنْ
لتنبو عن قذًى ومحنْ

وترفع رايةً لوطنْ
على مـدد وطول زمن
الا انهض حرّر الأرضا
وصُن ما دونك العرضا

تخفت الأنشودة . . . تتحرك الفتاة لتجلس فوق الحجر من جديد . . . يسود الصمت والظلام

يسدل الستار . . . .

المشهد

في عاصمة شمال البلاد ، وفي نادي الجمعية الخيرية ، التقى جمع من الأشخاص عددهم سبعة ، أغلبهم شبان ... ثم يلتحق بهم فيما بعد شاب آخر .

الأول : (يخرج جريدة) ، يقول :

لقد تفاقم الأمر بصورة مهولة ، وكشف المستعمر عن وجهه القبيح . ان قضية التجنيس هذه ، كانت دليلا قاطعا على النوايا المبيتة التي تكنها سلط الحماية لشعبنا ، تريد ان تمسخه مسخا ، وهي ترينا مدى ما تضمره لنا من شر وكيد ، يجرد الشعب من جنسيته حتى يسهل ابتلاعه !....

الثاني : يجب أن نبقى على اعتقادنا من ان المتجنس كافر ... وما في ذلك ريب .

الجماعة : أجل ، أجل .... لا ريب في ذلك اطلاقا !

الثالث : اننا بحق مقبلون على احداث جسام .

الأول : (وهو يتصفح الجريدة) تفيد الجريدة ان السلطة

الغاشمة استخدمت في العاصمة بعض المرتزقة من رجال اللفيف الأجنبي للتصدي للمتظاهرين العزل .. لكن المتظاهرين قذفوهم بالحجارة ، وانهالوا عليهم ضربا بما كان تحت أيديهم من أخشاب منزوعة ، وكراسيّ، وقوارير فارغة ، فسقط منهم عدد كبير من الجرحى ، ولقد شَن المقيم العام حملة انتقام واسعة ضد اهل المدينة ، ليريهم مغبة صنيعهم كما قال ...

لعلكم سمعتم كذلك بأن صاحب هذه الجريدة لم يضعف ولم يتراجع عن كتابة مقال اثر هذه الأحداث بعنوان « الشرطة في العمل ، استفزاز وعنف » يقول في خاتمته :

« ... تازم خطير في الأفكار وجو من الثورة ، تلك هي الأعراض المؤسفة تآلف وتهدئة . فهل يعمد المقيم العام الى القبض على ناصية الأمور بيده ، والتأمل فيها بنفسه ، وعدم الاتكال على الشرطة في تقدير خطورة الحالة ، واصدار الأوامر التي تعيد الهدوء والطمأنينة لدى سكان مسالمين لا يطالبون الا باحترام تقاليدهم ودينهم وموتاهم ؟

وهل يعمد سمو الباي الى التدخل بنفسه والاعتماد على مكانته السامية لوضع حد للاضراب الذي يتحمل علماؤنا كامل مسؤوليته ؟ »

الرابع : (يبدو أكبر سنا من الجماعة) والله اننا لنتوسم في هذا الشاب كل خير ، فقد أظهر عقلا ووطنية وحماسا لم نعهد هما من قبل في صحافتنا .

الخامس : (هو كهل في الأربعين) لقد رأيته في أحد الاجتماعات بناد من نوادي العاصمة في الأيام الأخيرة ، وقد شع الذكاء من عينيه وبدت على ملامحه دلائل الجد والعزم .

أصوات قادمة لمسيرة أو مظاهرة في الطريق تسمع نداءاتها وسط الركح ، فيسكت الجماعة ثم يقفون تباعا ، وهم يتساءلون فيما بينهم عن مصدر هذه الضجة ، وقد عرفوا انها مظاهرة شعبية رهيبة .

يدخل عليهم شاب مهرولا ، وهو يقول :

ـ لقد احتشدت كل المدينة ، وخرج السكان الى الشوارع لمنع دفن متجنس (ينظر من النافذة ويأخذ في وصف المظاهرة) . . . تعالوا . . . زحف كامل الشعب قاصدا المقبرة . . . . اللهم الهمنا النصر .

(يطل الجميع من نوافذ ومشارف النادي) .

الثالث : انظروا ، ان زمرة من الدرك تحاول ان تصد المتظاهرين فلا تقدر .

الثاني : (وهو ينظر أيضا بينما أصوات المظاهرة يرتفع صخبها على المكان) يا للهول . . . لقد اشتبك المتظاهرون بالقوات القادمة . . . . هيا لننضم إليهم (يخرج مسرعا) .

الرابع : هيا يا اخوان . . . . هيا لنخرج فلم يعد في القوس منزع ، ولتبق انت أيها الأب (مشيرا على الشيخ في الجماعة) . . . هيا لنشد أزرهم . . . .

(تمر المظاهرة ، وتختفي أصواتها وتضيع في السكون . . . . يعود الى الركح بعض من كانوا قد غادروه وهم يقلّبون أكفهم) .

الأول : هذا يوم لا كالأيام ، لقد رفعنا فيه رؤوسنا عالية ولن يهدأ للمستعمر بال بعد اليوم . فلو تحققت رغبة المستعمرين في دفن المتجنس في مقابرنا اليوم ، لما كان للأمر صداه ووقعه في نفوسنا .

الثاني : علمنا أن شيخ مدينتنا قد ناهض الفكرة ، وأدان كل من يخرج عن جنسيته بالكفر والفسوق والعياذ بالله . ولقد أصدر فتوى رفع بها الغشاوة ومزق الحجب .

(يخرج من جيبه ورقة وهو يتحرك الى أمام ، ويقرأ :)

يقول السائلون :

هل يمكن ان نتولى غسل المتجنس اذا مات ونصلي عليه صلاة الجنازة ؟ . . . . وهل يجوز دفنه بعد ذلك في مقابر المسلمين ؟

أجاب الشيخ بقوله :

« ان ما جاء في بيان احكام غُسْل الميت وإقامة الصلاة عليه ! ، قبل أن يوارى التراب في كتاب « أقرب المسالك » للعلامة الامام أحمد الدردير ، وفي حاشية الشارح أحمد الصاوي على هذا الكتاب القيم يفيد الحرمان ، حيث قال :

وحرم الغُسل والصلاة على الكافر إذا مات ، وان كان صغيرا ارتد ، لأن رِدَّةَ الصغير ، معتبرة بعدم التمييز وأما الدفن في مقبرة المسلمين فانه كالصلاة وكالغُسل ، الا إذا اختلط بالمسلمين(كأن تكون جثته بين عديد الجثث منهم) ولم يميز منهم ، فانه يغسل ويصلى عليه ، ويدفن في مقبرة المسلمين .

« ولا يرث المتجنس المسلم ولا يورث » لقول صاحب الرجبية في موانع الإرث :

رِقّ ، وَقَتْل واختلافُ دين

فافهمْ ، فليس الشكُّ كاليقين

فإن قيل أن لا علاقة بين الدين والجنسية ، فالجواب أن المتجنس لم يقصد خصوص التجنس من انه عربي أو افرنجي ، وانما مراده انه تُجْرى عليه أحكام الجنس الذي دخل فيه ونبذُه لجنسيته ولدينه .

وعدم اجراء الاحكام الشرعية عليه ، والتي كان متمسكا بها ، وتُجْرى عليه غيرها رضى منه ، فحينئذ لا دين له .

فإن قيل : وهل تُقبل التوبة لمتجنس ؟ « انظر أقرب المسالك » في باب تعريف الردة وإحكامها ، وغيره من كتب الدين . وانظر تفسير قوله تعالى :

« وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوا فَاسْتَغْفَرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفَر لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله تَوَّابًا رَحِيمًا .

وإنما افتيت بذلك لقوله تعالى :

« فلاَ تَخْشَوْا الناسَ وَاخْشَوْنِي » الآية .

ولقوله جل شأنه :

« وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمنًا قَلِيلاً » الآية .

ولقوله سبحانه وتعالى :

« وَمَنْ لَمْ يَحْكم بِمَا أَنْزَلَ الله فَأَوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُون »

ولقوله جل ذكره :

« وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمنًا قَلِيلاً وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونْ » .

صدق الله العظيم .

ولقول النبيء ﷺ :

« مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجم يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » .

صدر في رمضان المعظم 1351

الموافق 31 ديسمبر 1932

« يسدل الستار »

اللّوحة الرابعة

الفتاة واقفة تحت شجرة ، تمتد أمامها مروج خضراء ، وعيناها على المروج ، بينما يأتي من بعيد صدى خافت لموسيقى الخطوة ، تنشد الفتاة بصوت رخيم مقاطع من قصيدة « إرادة الحياة » . . . .

إذا الشعب يوما أرادَ الحياةَ
فلابد أن يستجيب القدر
ولابد للظلم أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوقُ الحياة
تبخر في جوها واندثر
كذلك قالت لي الكائنات
وحدثني روحُها المستتر.

. . . .

يهدأ الصوت . . . ويضيع في المدى الممتد ، وتأخذ الأضواء في التلاشي التدريجي ، فلا يبقى الا بصيص من ضوء قمري يسلط على وجه الفتاة دون سواه . . . . برهة ثم يختفي .

وبعد هنيهة على هذا المشهد الجليل ، تضاء الأضواء فجأة لتغمر كل جوانب الركح . . . . .

يسدل الستار

المشهد

قاعة جلوس بضيعة كبيرة ، الأشخاص الذين يظهرون هم : المعمر ، الجد ، المعمر الأب ، المعمر الجار ، اثنان أعضاء في المجلس الكبير يمثلون الجالية الفرنسية .

الجد : (وهو يقرأ العدد الجديد من الجريدة سالفة الذكر) ، ان ما يقولونه في هذه الجريدة هراء في هراء . فهذا التلويح بمطالب الاصلاحات هراء ، ولا يمكن لجاليتنا أن تتنازل مهما كان بسيطا من امتيازاتها وحقوقها لفائدة أحد . . . .

النائب الأول : قلت حقا ، اننا اكتسبنا هذه الامتيازات بكدنا وتعبنا ، منذ ان قامت الحماية في هذا البلد ، وما جهود أساطين امبراطوريتنا بضائعة هباء ما دمنا نعي مدلولها ونتبع خطاهم . . بل نسمع وقع خطاهم على الطريق الذي رسموه لنا من قبل .

النائب الثاني : من ناحية أخرى ، ما ذنبنا ان كان هؤلاء الصعاليك في الحالة التي هم عليها ، فالطبيعة نفسها بخلت بهم ،

فلم تؤهلهم لاكتساب حقوق أو لنيل مزايا ، فضلا عن حكم أنفسهم بأنفسهم ، وطغيان المحسوبية والرشوة على ساداتهم .

المعمر الأب : (وقد أخذ الجريدة يتصفحها) ووجب علينا أن نواصل الضغط على المقيم وان نطالبه باخماد الحركة التي تتزعمها هذه الجريدة ، واسكات هذه الأصوات ، والا ضاعت عليه الفرصة ، وطالبنا بإقالته من منصبه هذا . . . .

الجار : رأي صائب ، علينا ان نبذل قصارانا لنخمد هذه الأصوات .

الأب : في الواقع لا خوف على سياسة فرنسا في هذه الربوع ، فلقد وجدت لتبقى ، لكن لغو هؤلاء المارقين يجب أن يتم اسكاته بأي ثمن حتى لا تتسرب الأفكار الهدامة بين الدهماء .

في الجانب الأيسر من الركح يتولى بعض الخدم تنظيم منضدة الطعام ، يرصفون فوقها المآكل والمشارب صنوفا وأنواعا . تدخل ربة الدار وتصاحبها ابنتها وزوج ابنتها ، تقبّل زوجها ، تفعل البنت نفس الشيء بالنسبة لكل الحاضرين ، وهي تدور على الجمع بالقبلات .

الأب : هل من جديد يا بولين ؟

بولين : حضرنا الحفل الذي نظمته جمعية سباق الخيل جميل حضره أيضا بعض أعضاء المجلس الكبير من أهل البلد فياله من منظر مثير لقد شرب هؤلاء من الكحول ما يغرق ثورا جسدا ، أو يسكر كتيبة بأكملها . . . .

البنت : أمر غريب والله تلك المسوح التي يرتدونها ، فكأنهم في حضرة قديس ! (تضحك ويضحك لها الجميع) .

زوج البنت : ما رأيك يا زوجتي العزيزة ، في الهدية التي عرضها عليك أحد أعيان المجلس الكبير ؟

الزوجة : حصان ؟ . . . (تضحك ملء جوارحها ، ويشاركها الجمع في هذا الضحك المفاجىء)

بولين : يا ابنتي العزيزة . . . . ما الذي غَرَّبَكِ الى هذا الحد ، فتقبلين مثل هذه الهدية ؟

الزوج : ربما يريد هذا الغبي أن يضمّها الى زوجاته الأربع ، ومحظياته العديدات ؟ . . . . (يضحك) .

الجد : (يساهم في الدعابة) وعليه حينئذ ان يكسوها بالديباج ، ويحليها بالذهب الوهاج ! ويغطي وجهها الحجاب .

الزوجة : لم أعرف هذا العلّج من قبل . . . لكنه تقدم مني في مركض سباق الخيل ، وطلب مني ان أنتظر منه حصانا هدية !

الجميع يضحكون ، بينما تسكت الزوجة فجأة . . . . ويتحرج الموقف قليلا . . . . يصمت الزوج ليسترضيها . . . تصمت بولين أيضا . . يعود الهدوء من جديد . . . يتكلم أحدهم ، وكأنه يريد تغيير الموقف .

النائب الأول : هناك ، يا سيدي (موجها حديثه الى الجد) ، والحديث اليكم جميعا ، من ينظر من هؤلاء الى عضوية المجلس الكبير نظرة غريبة ، انهم يعتبرون العضوية فيه مساهمة منهم في تسيير

شؤون البلاد ، الا أنهم لا عمل لهم إلا تقـديم مطالب لامتلاك الأراضي مجانا والحصول على الامتيازات والرخص لهم ولذويهم .

الأب : يا له من مسرحية هذا المجلس الكبير !

زوج البنت : من العيب علينا ان نلوك سيرة هؤلاء الناس ، فأغلبهم طيّب السريرة ، يكن لحضارتنا اعجابا كبيرا . . . .

الجد : الشاذ يحفظ ولا يقاس عليه .

زوج الابنة : أجل ! .. غير ان التعميم لا يجب ان يكون .

بولين : يبدو أن اتصالك المستمر بأبناء هؤلاء القوم أيام الدراسة قد أثار شفقتك عليهم !

زوج الابنة : كيف يمكن أن يلام هؤلاء وهم قد اغترفـوا من معين مبادئنا في الحرية والمساواة والاخاء ؟

بـولين : (وكـأنها تريـد انهاء الحـوار) تفضلوا لقـد حـان وقت الغداء .

يقوم الجمع ويأخذ كل منهم مكانه على المائدة ، وينهمك الجميع في تناول الطعام ، بينما الخدم يهرولون في تقديم خدماتهم وبينما تنطلق الابنة الى ركن في حجرة الطعام لتدير الجاكي بعد ان وضعت فيه اسطوانة لأغنية فرنسية قديمة .

النائب الثاني : ما قولكم في مهمة العضو الموفد من قبـل لجنة المتابعة التي كونها مجلس النواب ، لدرس حالة البلاد عن كثب !

الأب : سنعرف أفكاره عند الاجتماع به بعد قليل لقد دعوناه لتناول القهوة فقبل الدعوة مشكورا .

النائب الثاني : كنت أود لـو تظهـر الجاليـة أمامـه منسجمة في مواقفها واتجاهها السياسي . لكن مع الأسف يبدو أن هناك اختلافا في الأفكار والمواقف ، وخاصة من حيث الطريقة التي يجب اتباعها لتفويت الأمر على دعاة الشغب .

النائب الأول : ان ما يؤسفني حقا ويحز في نفسي هو ما نراه من أفراد في صلب الجالية ، وخاصة العناصر الشابة التي تدعى الانتماء الى اليسار تناقش مفهوم الاحتلال في ذاته ، وتريد ان تعطيه تفسيرا غريبا لا يمكن قبوله بالمرة ! . . . .

الجار : في اعتقادي ، انه لا يجب التهويل . . . وغاية ما هنالك أنها موجة أخرى ، علينا ان نقابلها بالحزم ، وستكون لجنة المتابعة على بينة تامة من كل هذه الأمور فتدرجها تقريرها ، واني لأرى أن لابد من بذل المساعي ـ كل المساعي ـ لاحباط عمل هذه اللجنة ، أو تحويل انظارها عن الهدف الذي جاءت من أجله .

(يدخل أحد الخدم يهمس في أذن بولين) .

بولين : ها هو ذا مبعوث مجلس النواب قد أقبل . . . (تقـوم بولين لاستقباله) .

(يدخل عضو مجلس النواب) .

المبعوث : يومكم سعيد .

الجد : أهلا وسهلا .

ينهض الجميع فيصافحهم ويداعبهم فردا فردا وكأنه يعرفهم بسيماهم ، يتوجه الجميع الى قاعة الجلوس وقد انتهوا من تناول طعامهم .

الأب : مرحبا بك في ممتلكات فرنسا فيما وراء البحار !. . . .
النائب الأول : نحن سعداء بلقائك .
الجد : إني لممنون جدا على تلبيتكم هذه الدعوة .
عضو مجلس النواب : أشكركم على هذه الحفاوة .

يولين تقدم فنجان قهوة الى الزائر ، تنصرف الابنة وزوجها ، الخدم يتولون مهمة افراغ المأدبة مما عليها من أوان وصحاف .

الجد : (يبدأ الحديث) كيف كانت زيارتك للبلد ؟
عضو مجلس النواب : اعتقد انها ستكون زيارة موفقة ، ولو ان المهمة التي كلفت بها في الواقع تبدو صعبة بعض الشيء ، لأنه ليس من السهل - كما يبدو والحالة على ما هي عليه - درس الوضع وتقديم تقرير يعتمد على دراسة تحليلية . . اللهم الا اذا أخذنا مجرد الملاحظات وطرحنا الدراسة جانبا .

الجار : وكيف ترون الأمر بعد ان أجريتم كل هذه الاتصالات المكثفة على ما نعلم ، وحسب أخبار تنقلاتكم ؟

عضو مجلس النواب : ليس على ما يرام !. . . .
صمت مطبق يخيم على الجميع ، توشك الأغنية على الانتهاء ، ثم تسكت ، لكن بعد انقطاع يتكلم أحدهم .

الأب : وهل انتهيتم من رسم صورة تقريركم ؟
عضو مجلس النواب : لم انته بعد من تصوري فأنا مازلت مشدودا الى الواقع المتوتر في هذا البلد فضلا عن ان هناك بعض

المعلومات الهامة التي لم أحصل عليها بعد ، وما عداها فقد بقي غامضا .

النائب الأول : أرى من اللازم لحضرتكم لو أردتم استيضاح الأمور أكثر ان تتصلوا بكل قادة الجالية ، وفي مقدمتهم شيخنا المبجل (مشيرا بيده الى مكان جلوس الجد المعمر) .

النائب الثاني : صحيح ، قادة الجالية يعرفون الحقائق أكثر من غيرهم لأنهم يمارسونها عن كثب ويقفون عنها موقف المجابهة ، والمهم في رأيكم في نظري هو الحفاظ على مصالح فرنسا في هذا البلد ، ولذلك فان رأي قادة الجالية هو الرأي القاطع .

الجار : اننا يا حضرة النائب المبجل منذ أن حل آباؤنا بهذه الأرض عملنا على احيائها وقد كانت خلاء وقفارا ، وهي لم تزل كذلك الاّ ما استخلصناه لنا على مدار السنين من أراض وضيعات بينما أهلها هم حفاة عراة منذ القرون الغابرة ، الأمن بينهم غير مستتب بالمرة ، يأكل كبيرهم صغيرهم ، ويجور قويهم على الضعيف منهم ليختطف منه شاة أو امرأة أو مالا أو حليا !

ولكم قامت حروب أهلية بين أبناء القرية الواحدة وبين أفراد القبيلة الواحدة والحي الواحد ، فلما حلت فرنسا بمدنيتها وقواتها رفلت البلاد في ثوب الحضارة وانشأنا المدن والطرقات وأقمنا الجسور ونظمنا شؤون الادارة . . . .

عضو مجلس النواب : كل هذا جميل وان كان لا يخرج عن قول معاد مكرر مثل هذه الاسطوانة الجميلة التي كنا نستمع اليها . . لكن اذا خرجت الأمور من بين أيدينا فليس علينا حرج فيما أنتم

متعرضون له من ويلات . . . ثم ماذا يمكن لكم ان تفعلوا كجالية في مجابهة حالة البلاد الكئيبة ، وقد هددتها المجاعة أكثر من مرة ؟

النائب الأول : الأمر في غاية السهولة واليسر ، فان لدينا القوة الكافية لمجابهة أي تحرك مريب يعود على مصالح فرنسا بالوبال .

عضو مجلس النواب : لكن هذا من شأنه أن يزيد الحالة تعكرا وسوءا .

الجد : ليكن ما يكون ما دام الأمر جدا لا هزلا كما يقال (ثم مشيرا إلى نسخة من جريدة موضوعة على منضدة جانبية) إن ما يجري اليوم من اضطراب وخاصة بعد ظهور هذه الجريدة المناهضة ، ما هو الا نوع من نكران فضل فرنسا على هذه البلاد ، فالغوغائيون منهم قد تناسوا ما حققناه لهم على مدى العقود ، ونسوا ميزة فرنسا في تكوينهم . . . . ولست ادرى بعد كل هذا ما هو الشيء الذي ينتظر أن يستظهروا به غدا وبعد غد ، بعد ان طالبوا بهذه الاصلاحات الجوهرية في الحكم ؟

زوج الابنة : (وقد كان يتابع الحوار بامتعاض) لقد استمعت إليكم جيدا ، وأراكم تحاولون النيل من جريدة صاحبها لا يكنّ أي عداء لفرنسا ، بل يدعو الى التعاون معها في كنف الصداقة ، تعاون الند للند ، لا تعاون الغالب والمغلوب .

كما أرى أن صاحب هذه الجريدة ، يحاول ان يستميل معه الرأي العام في فرنسا ، ومن الأحرار من هم لا كسب لهم في وجود ما من شأنه أن يشوه وجه فرنسا ويجعل من مبادىء ثورتها في الحرية والاخاء والمساواة ، مجرد شعارات لا معنى لها .

الجد : (وقد اعتراه الغيظ) وما أراه الا استمالك أنت يا زوج ابنتي العزيز ؟

فجأة يدخل على الجمع راهب يرتدي المسوح السوداء فيحيونه ويوسعون له بينهم .

الأب : (موجها كلامه الى الراهب) أهلا وسهلا أيها الأب الوقور ، أقدم اليكم عضو مجلس النواب المحترم القادم الينا لمتابعة الحالة وتقصي الأمور .

الراهب : مرحبا ، لقد سمعت عنه وقرأت وتابعت نشاطه بشغف ، وقد جئت لأطرح البركة على هذا المجلس عسى النائب المحترم يوفق في مسعاه . وبالمناسبة أقول اننا عاقدوا العزم على بذل الجهد مضاعفا لالحاق هذه البلاد بالأرض الصليبية ، كما كانت من قبل ، وقبل مجيء الاسلام اليها . ولسوف يعيد التاريخ نفسه ، وترن النواقيس في افريقية ، فرسالة الكنيسة من رسالة الله ، ومهمتنا هنا ان نعيد الناس الى النصرانية ... بعد ان تركوها قرونا ، ونعيد اليهم معتقداتهم الأصلية ، وفي ذلك خدمة للاحفاد ولتراث الأجداد .

الجار : لو تنجح خطة التجنيس وخطة التبشير ، لأمكن لنا محو شخصية هذا البلد في أقل من طرفة عين ، وبجهد يسير .

الراهب : أرى أن الدين والسياسة يلتقيان ، بل هما صنوان ينبعان من عين واحدة . وذلك من أجل هدف واحد ، طالما أرق الأجيال والأجداد هو رفع راية المسيحية في كل ربوع الأرض القديمة

والجديدة وإلى أبد الآبدين .... ذلك أن احتلال هـذه البلاد ، وعقد المؤتمر الافخاريستي فيها ، نريد به إحياء روح الصليبية في بلد كان رأس حرْبة ضد هذه الصليبية ، بلد سقط على أرضه الكثير من أبناء أوروبا عندما حاولوا في آخر جولة من جولات الحروب الصليبية مناورة المسلمين على جزء من أرضهم ، فلم يفلحوا .... مما أثقل علينا الخسارة ، وضاعف من هزيمة الأجداد لانتزاع بيت المقدس .

وبينما يتكلم هذا القس ترن نواقيس ويسمع شيئا فشيئا أصوات فتيات مسيحيات تنشدن ، يقبع كل في مكانه بدون حركة ، رنين النواقيس وصدى الأصوات يتصاعد ، الراهب يرفع بالصليب الذي في عنقه ويشير الى الجمهور . تخفت الأصوات تدريجيا ويسود الظلام الركح .

يسدل الستار

اللّوحة الخامسة

ينفرج الستار عن الفتاة بزيها الأبيض ، وهي واقفة بعيدا في أحد زوايا الركح . . . تتقدم خطوة ، تنبعث موسيقى نشطة لنشيد وطني .

يتبدل المشهد ، وفي هذه اللحظة تطغى أصوات مدوية تنادي بالقصاص للشهداء ، يمتلىء الركح بجمع من هؤلاء المنادين ، فيزدحم بهم المكان ، تضيع الفتاة في الجموع ، يهدأ النشيد .

تبدأ الأصوات في الخفوت ، يصغى الجمع ، تتكلم الفتاة :

- يا صفوة الأحرار والثوار ، يا مناط الرجاء في هذه المحنة . . لكم ان تبشروا بالنصر القريب ، فالحرية شجرة عجيبة ، لا تروى الا بدماء الشهداء ، وكم في سبيلها يسقط شهيد وشهيد ، وهذه علامة خير وبركة ، انها بشرى عظيمة ، استردّ بها مقامي بين لداتي في الأمم الحرة ، وأرفع الراية خفاقة . . . فأنا اليوم مطمئنة على مصيري والمجد لله والخلود للشهداء .

الجموع : الله أكبر ، لتحيـا تونس حـرة مستقلة ، الويل لاعداء الوطن .

يطفى النشيد من جديد ، تضيع كل الأصوات الأخرى ....

يسـدل الستار .

المشهد

قوس كبير ، تمر تحته جنازة شهيد من شهداء المعركة ، هو نفس القوس الذي يفضي الى حي شعبي كبير في مدينة من ساحل البلاد ، الجموع تمر تحت هذا القوس ، الهتافات تتزايد ، واصداؤها تتردد في جوانب المكان ، من بعيد ومن قريب ! . . . . العلم أحمر به نجمة وهلال في دائرة بيضاء ، عنوانا على التحدي . . . يلوح وتلوح مجموعة اعلام تمر ونخفق . . . .

تترى الجموع من بعيد ، باب القوس هو الظاهر في واجهة المسرح ، وكذا مرّ الناس من خلفه ، ثم يظهر - ومن بعيد أيضا - النعش ، تزداد الأصوات ارتفاعا . . . يسود الظلام تدريجيا ، تنبعث الموسيقى . . . . لفترة ، ثم تنسحب الأضواء الخافتة على جوانب الركح . تذوب اصداء الموسيقى فلا يبقى غير الصمت !

وفجأة ينفرج المشهد عن أشخاص جالسين ، يبدو وأنهم من أهالي تلك المدينة ، يكشف المكان عن امرأة وقور ترتدي ملابس منزلية ، وهي تهيء الطعام وزوجها جالس على زربية وأمامه مائدة مستديرة الشكل ، وبجواره شخص آخر يظهر أقل منه سنا ، هو أخوه على ما يبدو . . . .

يتكلم الثاني وهو الشاب .

- حقا ، لقد رأيته وهو يحاول الصعود الى القوس ، بالقرب من الحي . . . وقد أطلق عليه الجنود النار ، فسقط شهيدا يتخبط في دمائه .

الرجل : لقد كان شجاعا ، وكفاه فخرا .

المرأة : يرحمه الله .... ها قد أثبت للمستعمرين اننا لا ننام على الضيم ... ولقد أطلقت زغرودة الشهيد !

الشاب : لقد ضج كل الحي بالهتاف والزغاريد ... ومنذ سويعات فقط ، حملناه في نعشه الأبيض اللون !

الرجل : ذهبت ألهث لألحق بالموكب فلم أقدر .

المرأة : لقد مروا به من الساحة الكبرى ، فلقد شاهدت الموكب بعيني ، وكنت أطلق الزغاريد ، ودموعي على خدودي تجري .

الرجل : ان الجرحى عديدون على ما أعلم .

الشاب : رغم هذا لقد تمادى المراقب المدني في غيه ، فشن حملة تشف وانتقام ليذيق كبار رجالات المدينة ، أنواعا من الاضطهاد والتنكيل .

الرجل : انه نوع من الاضطهاد الجماعي ، لم يسبق له مثيل من قبل .

الشاب : علمت أن كل رِجَالاَتنا معتقلون للتحقيق معهم ... وعامل المدينة لم يحرك ساكنا ... بينما المراقب المدني يفعل ما يشاء !.. إنها الكارثة والله !..

الرجل : المهم هو ان الشعب تحرك وتصدى ، ولن تمر أيام حتى ينتصر الحق .

الشاب : ان هذا الغليان عام ، هو ليس وقفا على مدينتنا فحسب ، بل انه يحدث كلما مات متجنس في مكان أو حي أو قرية ....

الرجل : أحمد الله على هذه اليقظة ، وكما يقول المثل : « جزى

الله الشدائد كل خير » . . . . لكن هل لك ان تسرد على مسامعنا قصة استشهاد بطل تلك المظاهرة ؟

الشاب : أنت تعلم بالحملة الموفقة التي يشنها في جريدته ابن من أبناء مدينتنا البررة ؟ .

الرجل : أعلم هـذا ، أغلب الظن أن هنـاك مؤامرة محبـوكة الأطراف تهدف الى مسخ هذا الشعب ومحو ذاتيته وكيانه .

الشاب : ان التجنيس كفر ، وبهذا افتى عالم من علماء عاصمة الشمال ، وهو الوحيد الذي أنار السبيل بفتواه ، في الوقت الذي تخاذل فيه غيره من رجال الفتوى . . . . المهم ان قائد هذه الحملة استند على نص هذه الفتوى ليواصل تفنيد البهتان ، يريد ان يكشف عن سياسة الابتلاع !

فمعركة التجنيس قد اتخذت طـابعا دينيـا محضا ولا سبيـل الى التمادي فيها بحال ، وإلا أفلت الزمام من يد المستعمر . . . . وهو لا يريد ذلك بالطبع !

الرجل : لقد سمعت كلاما يروج في المدينة مفاده ان من يموت في هذه المعركة يموت شهيدا ، وان المنازلـة فيها هي نـوع من الجهاد المقدس .

الشـاب : كل معـاركنا ضـد الاستعمار هي جهـاد مقدس ، خاصة إذا كان استعمارا صليبي النزعة والعِرْق كالذي ابتلينا به في هـذه الديـار . . . يقيم الكنـائس ، ويـرفـع الصلبـان ، ويـدق النواقيس وكأن الأرض لم يطهرها الاسلام منذ قرون .

المرأة : يا لطيف . . . قاتل الله الكفر ، وحمانا شر هذا المسخ الجديد .

الرجل : لسوف ندافع عن ديننا مـا استطعنـا ، ونحمي هذه الديار التي طهرها الاسلام من كل ما هو نجس ومرذول .

الشاب : . . . غريب أمر هذا المراقب المدني ، فقراره القاضي بدفن طفل ذلك المتجنس اللعين في مقبرتنا يتنافى تمامـا مع القـرار الذي اتخذه المقيم العام في الأسابيع الماضية بعد الاضطرابات التي عاشتها البلاد والقاضي بتخصيص أماكن معينة بالمقابر الاسلاميـة للأموات من المتجنسين يدفنون فيها .

الرجل : فعلا ، لقد استبد المراقب المدني بعد هـذا القرار ، الذي اعتبره انتصارا لقائد معركة التجنيس ، ابن مدينتنا البار .

الزوج : لكن لا تنسَ ان المقيم العام قد استصـدر في نفس الوقت من الباي أوامر تعسفية جدا ترمي الى أبعاد كل شخص يقوم بأي عمل أو أية دعاية ضد نظام الحماية الى دوار أو مقر قبيلة أو أي مكان آخر تعينه ادارة الحماية .

الشاب : ان احتجاج أهالي مدينتنـا على دفن ابن المتجنس في مقبرتنا ليس بالتنطع والعصيان كما يراه المراقب المدني ، بل دفاع عن حق مكتسب وشرعي ، وما مقتل ذلك المتظاهر المقدام الا جريمة نكراء .

الزوج : لم تقل لنا بعد كيف استشهد البطل .

الشاب : لقد قاد جماعة من الوطنيين تريد أن تحول دون دفن أحد المتجنسين في المدينة ، وتصدى للجند الذي كان يحيط بالجنازة ، ثم صعد السور يريد أن يرفع العلم فوق القوس ، فأطلقوا عليه النار فأردوه قتيلا . . . .

الرجل : الله أكبر . . .

الشاب : ولقد تقدم جمهرة من المتظاهرين يـريدون ان يحملوه فاكتنفهم الرصاص من كل جانب ، وجرح منهم عدد كبير . . . غير ان غليان الناس أخاف الجند ، فتراجعوا مخذولـين وقد تـركوا المكان بعد ان امتلأ بالحشود الصاخبة وكأنه هدير الموج !.

الرجل : لقد كانت هذه الحيلة من قائدهم . . . حتى لا يفتك بهم الشعب ، وهو على هذه الفورة من الغضب .

الشـاب : المهم ، لقـد تقـدمت أنـا دون وجـل ، وحملت الجثمان ، ومعي آخرون ، ولم يزل دم الشهيد ساخنا . . . . وحملته ومعي الرفاق ، نهم أن نسير في طريق المستشفى . . لكنه كان قد أسلم الروح فعلا ، وبعد ان سرنا به خطوات !

الرجل : إذن أنت شاهد عيان !. . شاهد صدق .

الشاب : أجل ، وهذه ملابسي الملطخة قد استبدلتها وعلقتها على هذا الحبل من فوقك .

المرأة : سوف أخفيها فورا فلا تدل على انك أحد الشهود .

الرجل : لا خوف ولا خشية ، فكل واحد في هذه المدينة قد رأى الحادث رأى العين . لكن حاولي ان تزيلي عنها آثار الدم بغسلهـا جيدا وكفى !

يُسمع طرق على الباب ، تهم الزوجة لتفتح ، فيبقيها أخو الزوج ويهرول مسرعا الى الدهليز .

يسود الصمت لبرهة . . . .

بتكرر طرق الباب ، يسأل أخو الزوج من الداخل :

ـ من بالباب ؟

ـ افتح !..

ـ انتظر ،

يتولى فتح الباب بازاحة المزلاج ، يظهر رجل مهيب الطلعة ، وخلفه شخص ثان ، يدخل .... وفي اثره رفيقه التابع ....

أخو الزوج موجها كلامه نحو الرجلين :

ـ تفضلا بالدخول ، يا مرحبا ، يا مرحبا ،

يسأل الزائر الأول بعد دخوله المنزل بقوله في شكل مداعبة .

ـ أين صاحب المنزل ، ولماذا هو مختبىء ؟

يهم أخو الزوج بالكلام ، لكن صوت الزوج يستجيب من أعماق صحن الدار :

ـ أهلا وسهلا ، لست مختبئا ، لكن ما حدث اليوم يجعل المرء يلوذ بمنزله للسلامة !.. وعلى كل فلقد بحثت عنك فلم أجدك .

يتقدم الزائران ، بينما تكون ربة المنزل قد هيأت مجلسا للقادمين وهي تشارك في الترحيب بهما ... وتُمَهْمِهُ في الحديث بما يعلن عن غبطتها بمقدمهما .

الضيف الكبير وقد اتخذ مجلسه في ركن وثير :

ـ فعلا .. ان ما حدث اليوم جدير بأن يسجل ، لكن ألا ترى أنه أمر مشرف حقا ، رغم ما شابَهُ من مرارة وأسى ؟!

رب الدار (وقد هرع الى لقاء الضيف وصاحبه) :

ـ حمدا لله على كل حال ، وأشكر لك مجيئك الساعة لنتدارس نتائج ما حدث في هذا اليوم ، فلقد كان أخي يقص علي تفاصيل ما حدث بالحرف .

الضيف الكبير : ان ما حدث شيء عظيم ، فلقد باتت المدينة على ضجر !.. ولن يهدأ لأحد جفن بعد اليوم .

الشاب : .... وبالاضافة هل لديكم من جديد ؟!

الضيف الكبير : الجديد هو هذه الاضطهادات التي تجري الآن وتستهدف أعيان المدينة وكبراءها ، ولقد ابلغنا احتجاجنا على تخاذل عامل المدينة ، وها هو ذا صاحب البلاد ، قد عزل هذا العامل الجبان ، والقى عنه عبء هذه المسؤولية .

الرجل والشاب معا : .... انه لخبر سار حقا ....

الضيف الثاني : كان قرار ا في محله ، وسوف يكون عبرة لمن يعتبر من هؤلاء العمال التونسيين الذين يدينون للذات العلية !

الزوج : وماذا بعد ذلك ؟

الضيف الكبير : لقد رأينا ان نبقى الجو ساخنا ، فلا جديد بعد من هذا المقيم المغرور ، وان نؤلف وفدا من كبار رجالاتنا ، ليذهب الى الباي ويقدم له الشكر على قراره بعزل العامل بعد ان قصر في حماية الأهلين ، من التنكيل والتعذيب ، وأرى ان تنضم أنت الى هذا الوفد ، وهذا رأي كل الجماعة .

الزوج : لا مانع عندي من ان أذهب ضمن هذا الوفد ، ولكن كيف السبيل في الوصول الى صاحب العرش هذا ....

الضيف الكبير : ان للوفد خطة ، هي ان يتصل بقائد الحملة ضد التجنيس ، ابن مدينتنا ذلك المحامي الهمام ، ليقود خطاه الى الأعتاب السنية ويقدم هذا الشكر والامتنان ، وسيكون معكم أخونا هذا (مشيرا الى الضيف الآخر) شرط ان تنجحوا في أداء المهمة .

الشاب : (متشككا) ان هذا واجب .... ولكن ماذا عساه يفعل هذا الوفد ، سوى تقديم الشكر والتمرغ على الأعتاب ؟!

الضيف الكبير : هذه خطوة لابد ان نخطوها .

المرأة : سدد الله الخطى على كل حال .

الزوج : لا يجب علينا ان نشكك في أمر ، ولسوف نفعل الكثير بعد ذلك ، المهم هو ان نعبر عن هذه الرغبة ، ولا نعود بخفي حنين .

الضيف الثاني : ان لنا لثقة تامة في عزيمة محامينا الشاب ، ولقد أحسن الوفد الاختيار حين قرر الاتصال به اولا وكأنه معقد رجائنا في هذه المحنة .

الشاب : لسنا ندرى على كل حال ، والمهم ان يذهب هذا الوفد لتسجيل هذه الوقفة الحازمة ، والتعبير عن الارتياح لعزل العامل الجبان .

الضيف الثاني : لقد اتفقنا من ناحية أخرى على ضرورة ابقاء الجو متوترا ، فلا هدوء ولا سكينة مما يدعو اليه المقيم ، حتى ينجلي الموقف ويسفر عن جديد مغاير .

الزوج : لتبق جذوة الحماس متأججة ، ولن يخيفنا الرصاص ولا الجند .

الزوجة : (وهي تنفخ على الكانون حتى تبقى جمراته وهاجة) لن تفِلّ أبدا عزيمة الأحرار .

يسدل الستار .

اللّوحة السادسة

يفتح الستار عن الفتاة واقفة . . . تقرأ في لوحة معلقة تدور أمامها فتدور معها ، وتتردد صوت موسيقى ناعسة :

نـنتـقـلُ الآن لنسـتجلـي ** الـوجـهَ الآخـر للصـورة
في فئـةٍ كـانـتْ تتـصـدى ** لتغيّـرَ من وجـه الـصـورة
أو تـزعـم ان قـيـادتهـا ** ستحـرر أرضـاً مـقـهـورة

تصخب الموسيقى قليلا ثم تعود إلى هدوئها . . . .

فئـة قـد جلست فـوق أر ** ائـك في الـبـيـت وثيـره
أو قَنَعتْ لا تـعـرف الاّ ** هجمـات الثلب مسعـورة
وكـفـاهـا ان رسـالـتـهـا ** تـوجـد بصحـائف منشورة

. . . .

تصخب الموسيقى . . . . . وتهدأ .

لم تعرفْ أن القمرَ إذا مـا ** أرسـلَ لـلدنـيـا نـوره

أو اشرق ضوءُ الشمسَ سَنًا ** في هـالـة مجـدٍ مـوفـورة
لا يُغْدِقُ من سيل شعـاع ** بـالـوجـهِ المظلم للصـورة

تصخب الموسيقى ... وتهدأ من جديد ....

نـتـقـلُ الآن لنستـجـلي ** الـوجـهَ الآخـرَ للصـورة

يختفي هذا المشهد كله ،

ويسدل الستار

المشهد

قاعة من نوادي المنظمة السياسية الوطنية ، الحاضرون جمع من أعضاء قيادة هذه المنظمة ، يبلغ عددهم ستة .

الأول : انه لتصرف غريب قام به مدير هذه الجريدة المناوئة .

الثاني : انني والحق يقال ، لم أهضم بعد عملية انضمامه الى لجنتنا هو وجماعته رغم ما عرف عنه من تهور ومن عدم اتزان ، فهو يبدو على غاية من التطرف .

(الجميع ويبدون متفقين) ولا نحن كذلك . ولكننا قلنا خطة نمتص بها نشاطه ، فان نجح كان لنا هذا النجاح ، وان فشل حاسبناه على هذا الفشل ، وانكرنا عليه سلوكه .

رئيس الجماعة : انه يريد ان يؤلب علينا الدنيا من أول يوم ، وكأنه يحاول ان ينتزع منا الزمام . وما اجتماعنا اليوم الا للنظر في أمره وأمر هذه الزمرة التي جاءت معه وساندته من أول وهلة .

فلنكن على بينة مما يدبر وخاصة انه يحاول تعكير الجو أمامنا .

الثالث : ألم تقرأوا بعد ما كتبه في جريدته من انه يحتج على سلطات الاحتلال . ويندد بملك البلاد الشرعي .

الخامس : كلا ... لم اقرأ بعد ...

الثالث : سأقرأ عليكم ما كتبه بالحرف الواحد (يتناول الصحيفة ويقرأ باستهزاء)« تنازل واستسلام » !

... « أما نحن فاننا نصرح منذ اليوم ... لحكام البلاد ، ان القرار الذي يهيأ لنا لا نخافه ولا نخشاه ... فان من ضحّوا بحريتهم أو أرواحهم لا يثنيهم تهديد ولا وعيد ، فالقضية المقدسة التي ندافع عنها هي تحرير أمة بأسرها ، وانها بحاجة الى شهداء أكثر لتبلغ طورها الحاسم » .

الخامس : أوه .... هذا كلام خطير لم يخطر على بال أحد منا ! .

الثالث : لنستمع .. (يواصل تلاوة المقال) » لقد مضى الزمن الذي كنا نخشى فيه على مصير حركتنا ، فيما لو قضى علينا ، وكان الردع الاستعماري القاسي كثيرا ما يفضي الى أضعاف النفوس في شعب جاهل أمره ، ذاهل عن نفسه ، لا يشعر شعورا قويا بقدرته الكامنة وبحقه في الحياة ......

أما اليوم فلم يبق من موجب لحيرة أو لخوف ، فلقد جاء الردع بعد فوات الأوان ، والحمد لله ان وجدنا متسعا من الوقت لمخاطبة الشعب مخاطبة مباشرة ، ولايقاظه من سباته ، ودفعه الى طريقنا .. طريق القوة والرشاد .

وستنجم عن كل ما ينالنا من تدابير الزجر ، انقلابات واضطرابات لا يمكن تقدير عواقبها فالشعب معنا ، وهو يتحين الفرصة لاظهار ذلك للعالم بأسره . . . . » .

الثالث : (يواصل) ثم يقول :

« ولهذا السبيل نمضي في طريقنا معززين بتأييد شعبنا الأبي ، بينما صاحب العرش قد أمسك عن التأييد ، وسنعمل على ايقاظ هذا الشعب وبث الدعوة السياسية والدينية فيه » .

فما هو تعليقكم ؟

رئيس الجماعة : انه لكلام خطير ، لم نعهده من قبل ؛ ، والرأي لكم .

الأول : ان ما يزيد الطين بلة ، انه في هذا المقال لا يخاف ، ولا يقف عند حد معين ، فضلا عن انه يتكلم باسم الشعب ، فمن ذا الذي أوكل إليه هذا الأمر يا ترى ، زيادة على انه يتطاول على صاحب العرش ، ان له هدفا يا جماعة !

الثالث : يريد دفع الشعب الى مقاومة المستعمر بالقوة ويخاطبه من وراء ظهورنا ، وهذا أمر لا سبيل اليه من وجهة نظري الخاصة ، والا تركنا له الفرصة ليستغل قضية الاستقلال ويحقق أهدافه على حسابنا .

رئيس الجماعة : أجل ، أجل ، فنحن أصحاب الرأي بلا منازع ، ولا أحد يستطيع ان ينتزع هذه الصفة منا . لكن كيف يمكن لنا ان نخرج من هذا المأزق الذي وضعنا فيه هذا الشاب باندفاعه وهيجانه ؟

إن الأمر لخطير ، ونحن ما اجتمعنا اليوم الا لعرضه عليكم واتخاذ قرار فيه .

الثاني : يجب علينا ان نهادن هذا الشاب ، وان نكون معه مرنين فلا نظهر له الغضب ، حتى ننتزع منه كل مبادراته .. وبذلك نضعه في الثلاجة .

رئيس الجماعة : أجل ، ونحن نعتقد ان العنف لا يجدي مع مثل هذا ، وقد يكون وسيلة مع غيره ، أما هو فلا ....

الثالث : أيمكن هذا ؟..

الثاني : ما العمل الذي ترونه اذن ، لقد تفاقم الوضع . ولابد من حسمه في هذه الجلسة .

الرابع : لو وقف الأمر عند هذا الحد . لهان الأمر ، فصاحبكم كتب مقالا آخر زاد به النار اشتعالا ، يحاول ان يؤجج به الحقد ، فاستمعوا الى ما يقول فيه : (يقرأ العنوان) « موقف غريب » .

الثالث : ترى ماذا يقصد بالغرابة هنا ؟

الرابع : (يواصل) انه يقصد جماعة لها شأنها في هذا البلد ، يقول في جملة اعتراضية يفتتح بها هذا المقال : « ان الشعب ليمتعض من الخزعبلات » .

انه يبدأ مقالته بالتعريض بهذه الجماعة المحترمة ويندد بسكوتها على ما سماه بالفضيحة وبعبارات لاذعة تزلزل الكيان .. إلى أن يقول :

« ذلك انه بالرغم مما ترسب في نفوس بعض الناس من الامتعاض نحو رؤساء الأغلبية فان الاحتجاجات التي تقاطرت من

كافة الأقطار لم تتضمن الا التشنيع بوقوف الخونة والمتزلفين الذين لم يروا من جانبهم تعزيز جانب الأغلبية » .

(يضع الجريدة وينظر الى الجماعة باستغراب قائلا :) .

- أسمعتم مثل هذا الكلام ، يا سادة ، حقا ان أمره ليبعث على القلق !

الخامس : لقد كانت المشكلة متمثلة في الخروج علينا عندما ترأس وفدا من مدينته لمقابلة صاحب التاج ، ولتقديم الشكر اليه على مبادرته بعزل عامل المدينة الذي أبدى تقصيرا كاملا في حماية الأهالي من الاضطهاد .

لقد فعل ذلك دون أخذ مشورتنا ، وما أراه الا ممعنا في التحدي ضاربا بمواقفنا عرض الحائط .

رئيس الجماعة : الآن وقد بحثنا الموضوع جيدا علينا ان نوجه إليه اللوم والتقريع خاصة وأن الفرصة سانحة للتنديد به بعد ان قاد هذا الوفد الى سمو الباي .

الأول : نكتفي بما قلت ، والحق ما قررت أنت .

الجميع : لنوجه اليه اللوم والتقريع . . . .

يسدل الستار

اللّوحة السابعة

الفتاة على الركح ، هذه المرة ، نشطة تتحرك في خطى شبه راقصة ، تروح وتجيء ، تلف وتدور حول نفسها . . . . وقد تملكتها غبطة تامة ، واعتراها سرور عارم ، وكأن الدنيا لا تسعها من الفرحة .

الموسيقى التصويرية تنشط معها بغزارة وفيض ودفق ، فتعبر عن التلاؤم التام وهي تجسد حركات الفتاة المراحة ! . . . تتلألأ الأضواء في غمرة هذا الجو الزاهي وتشع من كل جانب بألوان قوس قزح ، وكأنها في نفس الغمرة تطارد الظلال الجاثمة ، تماما كما يطارد الأمل العذب ظلال اليأس والقنوط ، فتملأ جوانب النفوس بالنور الجديد . . . . نور الأمل الذي أشرق بعد ليل .

وفجأة تترنم العذراء الحلوة بهذا اللون من الابتهالات :

اغـمـريـني ، دثّـريـني . . . بـضـيـا الـفـجـر الجديدْ

ربةَ الاحلام والانسام والوصلِ السعيدْ

فـلقـد لاح صـبـاح ... دانيَ الـقـطفِ .. ولود

يتسامى في اختيال ... يتجلى في صعودْ

....

اغمريني بضيا الفجر .. واحلام الحياة

وَذَريني أقـطفُ النورَ عـلى طَلْعِ سنـاهْ

انه القائد ، يصحو الكونُ من وقع خـطاه

فـإذا أقبل حَلِّيـهِ ... بأطـواقِ الورود

....

أسمر الجبهة يبـدو .. ومع النـور المذابِ

رَبْعَةً صنّاع امجادٍ ... على صدر كتابي

عاليَ الهمة مفطورًا .. على حبي المُهاب

باركيه ، كلما آذن .. في الفجر سَعُودْ

تتمايل الفتاة لتعود الى رقصاتها الجميلة في طريقها الى باطن الركح ووجهها الى الجمهور ، وهي تبتعد تدريجيا ، ومعهـا الأضواء والمـوسيقى تذوب في تضاؤل ... حتى الصمت والظلام !

يسدل الستار .

المشهد

في نادي الجمعية الخيرية بعاصمة الشمال ... أشخاص جالسون أغلبهم من الشبان ، يدخل عليهم فيما بعد شخصان آخران تجاوزا سن الكهولة .

الأول : انها لمهزلة ، مهزلة مؤلمة ، ان الذين قرروا توجيه اللوم الى صاحب المقالات في معركة التجنيس وقد أيقظ بها الهمم ، لم يخجلوا في نفس الوقت عن بيع نسخ بالآلاف للصورة التذكارية ، التي التقطت له مع وفد مدينته عند مصاحبته الى الباي .

الثاني : انهم يستدرون المال من أي طريق . . .

الثالث : ان لم تستح فافعل ما شئت . فأي سلوك شائن وأي تصرف مزر أكثر من هذا . . . . انه لعبث بالعاملين ما كان له أن يحدث . . . .

الرابع : والأدهى ، انهم بتصرفهم هذا دفعوه الى تقديم

استقالته من لجنتهم . استمعوا اليه يقول في بيان أسباب هذه الاستقالة : (يخرج ورقة من جيبه) .

« ان مسألة الوفد الذي ترأسته ، ليست الا تعلة وهمية ؛ لجأتم إليها . . . . بل هي تعلة شنعاء ، والا فكيف السبيل الى تأويل هذا التشدد الذي أظهرتموه نحوي ، وكيف يمكن اعتبار موقفكم .

ولشد ما ادهشني عندما أسمع ان ثقتكم بي كانت في حكم العدم . من أجل ذلك ، وسعيا وراء استيفاء نصيب لي من الاستقلال لا يمكن التنازل عنه ، وصيانة لكرامتي ، واجتنابا لتكرار حوادث مؤلمة مثل التي حدثت فاني أرى نفسي مضطرا لابلاغكم نبأ استقالتي .

« على اني لن أتوانى بسبب ذلك عن الجهاد في سبيل تحقيق غايتنا العليا بوسائلي الخاصة ، وبمؤازرة كل الذين يضعون مصلحة الوطن وحريته فوق كل اعتبار » .

الخامس : لعله فاتكم ان اللجنة التي انكرت على هذا الشاب مصاحبته لوفد مدينته لمقابلة الباي ، قامت بتصرف مخجل . . . . فقد ذهب افرادها الى المقيم وأعلنوا له براءتهم منه واستنكارهم لموقفه .

الثاني : أجل ، وساءهم ان يروا جريدته تعبر بالفعل عن احساسات الشعب ، وتنذر الاستعمار بالهزيمة ، والخسران .

الرابع : لندعهم وشأنهم ، فان ما يرفه عني حقا هو طريقة هذا الشاب في الكفاح ، انه يسعى لتوحيد صفوف الضعفاء ليكون منهم قوة ضاربة تنفع في الملمات وحين الباس .

الخامس : بلغني انه سيجري بالشعب اتصالات مباشرة في الأسابيع القادمة .

هنا في هذه اللحظة يدخل شخصان يبدو عليهما تقدم في السن .

السادس : السلام عليكم .
السابع : بلغني انكم تجتمعون هنا فعزمت على الحضور اليكم ولم يبخل صاحبي عن مرافقتي رغم مشاغله العديدة .
الأول : في الحقيقة ، لم يكن اجتماعنا هذا اجتماعا مبرمجا من قبل . بل التقينا جميعا بمحض الصدفة ، فأردنا أن نخلو الى أنفسنا نستعرض بعض ما جد من أمور .
السادس : قلت حقا ، فالجو السياسي آخذ في التعكر ، والأمور لا تبشر بخير ، خاصة بعد هذا الانشقاق الذي أصاب الحزب .
الثاني : يبدو ان عوامل الفرقة بين المتنازعين أكبر من عوامل الجمع والتضامن .
السابع : نعم الخلاف على أشده ، ولقد اتسع فيه الخرق على الراقع كما يقولون . والسبب هو تباين النظرة وفروق العقليات .
السادس : أرى ان المسألة عويصة ، وهذا ما يفتت الجهد خاصة في هذه الظروف التي استفحل فيها داء الاستعمار .
الأول : اني أرى الصبح في هذا الليل المظلم ، وقد يكون من الأنسب ان يحدث مثل هذا الانشطار ، حتى يقف الناس على حقيقة

كل مستور .

الثاني : يكفي ان الشعب وقف من حوادث التجنيس وقفة حازمة .

الثالث : اننا سئمنا الميوعة في المواقف ، ولابد من عمل جديد مغاير ، يشرق الشمس قبل أوانها كما يقال .

الرابع : أجل ، لم نعد نطيق هذه الحالة التي سادها البؤس والكساد وركود الأفكار والمواقف ، حتى تسلل اليأس الى الشعب فاستسلم كما تستسلم الشاة للجزار .

الخامس : ألم تر الى مشايخ الطرق الصوفية العقيمة وكيف يشيعون في الناس ان ما يحدث لتونس هو من قبيل القضاء والقدر .

الثاني : الحقيقة ان هؤلاء المشايخ هم عار آخر يجب التخلص منه . لقد نسوا قول الله عز وجل :

« إنّ الله لاَ يُغيّر مَا بِقوم ٍ حتى يُغيّرُوا مَا بِأنْفُسِهم » .

الجميع : صدق الله العظيم .

الأول : لقد علمت ان القائد الشاب سيأتي الى مدينتنا عما قريب ليجتمع بالناس وليوضح موقفه من الشقاق فهلا ناصرناه منذ وصوله ؟

الثالث : انها فرصة ثمينة ان ننظم له مسيرة تسانده وتحميه وتهز بهتافاتها النفوس الخامدة فتؤجج فيها جذوة الحماس .

الخامس : وكيف السبيل الى هذه المسيرة ؟

الأول : ان ننطلق منذ الآن الى الأحياء والقرى المجاورة لنعلن للناس موعد يوم الجمع ومكانه ، وان زعيما شابا سيأتي الى مدينتنا

بفتح للنضال عهدا جديدا .

الجميع : فليكن الأمر كما قلت ، ولينصرف كل فرد منا الآن تصحبه السلامة .

يسدل الستار .

اللوحة الثامنة

الفتاة في مكانها الأمامي من الركح ، وقد أحاط بها قوس نصر كبير ، صنع من جريد النخل ، وفوقها بأحرف كبيرة كتبت هذه الآية :

« وقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولهُ وَالْمُؤْمِنُون »

وفيما الموسيقى تصدح بألحان عميقة الأغوار ، وكأنها الأصداء قادمة من بعد ، تأخذ الفتاة في التحرك قليلا ، خطوة الى خارج القوس المنصوب ، وتأتي بحركة تدل على ثقتها بنفسها كفتاة في ريعان الشباب .

ثم تقول :

... وَمَضَتْ أسابيع وأيّامٌ		كساعات قصار
والشعب يفخر معجبا		قد ذاق طعم الانتصار
متهكما من زمرة		لم يجب منها غير عار
أو جاليات تَبتغي		إلبَاسَه الثوبَ المُعَارْ

متجاوبا مَع صَيْحَة رَنَّتْ بأجواءِ الديار
سَكرى بأحلام الدُّجى حبْلَى بأنوارِ النهار

في دعوة لا تستكين ، ولا لها يخبو أوار
من قائد عرف الحقائق بعد درس واختبار
نشر القلاع وامسك المجداف، والبحر اعتكار
يستشرف الأفق الوضيء ويرتقي لجج البحار
حتى غدت تزكو النفوس وفي العقول لها اختمار
فتفجر الطود الأشم بهامه نور ونار
نور يضيء العاملين وتحرق النار الشنار

. . . .

والليثُ يطوى صدره عن خِطَّة فيها ابتكارْ
تستهدف التحريرَ والتنوير حتى الانتصارْ
والشعب يقفو خُطْوَهُ فرحاً لكي يحمي الذّمار
وكفاه ما عاش القرونَ يئنُّ تحت الانكسار
يستطلعُ الأفْقَ البعيد ولا يلوحُ له النهار
أو ينطلب الحق السليب فلا يُجير ولا يُجَار

يختفي المشهد شيئا فشيئا . . . .

يسدل الستار .

المشهد

جمع من المناضلين في قرية من قرى ساحل البلاد ، وقد الفت بين قلوبهم وحدة العمل السياسي !، قد اجتمعوا في منزل أحد كبار رجالهم ، وأخذوا في الحديث وكأنهم يستعيدون بعض ذكريات قريبة حدثت في ليلة خلت وما أسفر عنها من نتيجة ايجابية أجمع الكل على أهميتها .

غير أن البعض ممن لم يكونوا ضمن احداث تلك الليلة التاريخية ، كانوا على خوف من الانسياق في التأييد لهذا الشاب المحامي ، وفي خشية من ان يكون قد غرر بالقوم خاصة وقد بدا لهم صادق الحجة ساحر البيان .

لهذا اجتمعوا في هذه الدار التي شهدت نفس الأحداث السالفة ، وهمهم أن يقفوا على حقيقة ما حدث ، وأن يزيلوا من نفوسهم تلك المخاوف ، وكأن بيان اللجنة التنفيذية في الدعوة الى عدم تصديق ما قاله المحامي الشاب للرفاق هو خط الرجعة لهؤلاء المتخوفين في تلك الليلة .

***

المنظر : حوالي عشرة أشخاص يجلسون في غرفة متسعة مستطيلة الشكل ، وبينهم رب الدار ، وبعض الشبان يروح ويجيء بصينية الشاي ،

ويعمد الى توزيع أكوابه على الجالسين .

رب الدار : ان لكل من لم يحضر احداث تلك الليلة ان يطمئن ، فوالله لقد حدثنا هذا الشخص وأفاض ، حتى لقد حملناه على الأعناق اثر انتهاء السهرة .

أحد الحاضرين : لا ريب لدينا فيما تقولون . . غير أن البيان الذي وزعته اللجنة التنفيذية ، قد أثار فينا بعض الشكوك .

رب الدار : دعك من دعاوي هذه اللجنة ، فهي لا تصلح لشيء الا لنسج الأكاذيب وإشاعة الأباطيل .

شخص ثان : والله لقد وعدناه بأن نؤيده ، ولن نتراجع عن وعدنا بعد اليوم .

ثالث : صدقت ، فنبرة الصدق في حديثه كفيلة بأن تجعل السامع إليه ينساق وراءه دون ان يدري ! لقد سحرني بحديثه والله ! . .

رب الدار : على اننا استقبلناه على وعي منا ، وكنا نريد أن نعرف عنه الكثير ونعرف ما يعتمل في فؤاده وعقله من أحاسيس وأفكار ، فوجدناه شابا مستنيرا صادق العزم سليم الطوية ، لا تلين له قناة .

شخص رابع : واني لأذكر الشرط الذي قابلناه به ، وهو أن يفسر لنا سبب استقالته من اللجنة ودواعي الخلاف الذي شب ، فلقد كنا عنه منكمشين أول الأمر .

شخص خامس : . . . كفاه انه انتصر في معركة

المهندس . . . .

الشخص الرابع : لا مفر لنا إذن من ان نؤيده كل التأييد ، وان نذهب معه الى آخر الشوط ، ولذلك قررنا معه الدعوة الى عقد مؤتمر جديد يحتكم فيه الى القاعدة الشعبية ، لتقول كلمتها في الأمر .

(يخرج واحد من المتشككين ورقة من جيبه ، هي منشور اللجنة التنفيذية الى احرار هذه البلدة ، فيبدأ في قراءته) .

- لقد طلبتم مني احضار النسخة التي وصلت الى مقر الشعبة ، وها أنذا أتلوها عليكم لو أردتم :

الجميع : أجل ، تفضل واقرأ علينا . . . . وان كنا علمنا بمحتواها من قبل .

هو : بسم الله الرحمان الرّحيم « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَة فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِين » .

رب الدار : (مقاطعا إياه) صدق الله العظيم ، لقد ناقشنا هذا الأمر بالأمس وقررنا ان نجيب عليهم بالآية الكريمة الأخرى :

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُه وَالْمُؤْمِنُون » وبالآية :

« إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ! على أن الدعوة الى المؤتمر كانت القرار الواضح ، لا لمجرد تفسير أسباب هذا الخلاف ، وانما للانطلاق الى قاعدة العمل . . . . « فَقُلِ اعْمَلُوا . . . . » .

أحد الحاضرين : (موجها كلامه للجمع المتشكك) .

لكم ان تـطمئنـوا ، فنحن لم نفتـح لـه صـدورنـا من أول وهلة . . . .

صاحب الدار : ناهيك انه وصاحبه جاءا في وقت الافطار ، وقد كنت مشغولا بلقاء السهـرة معهما ، فلم ادعهـما الى تناول طعـام الافطار . . . . وهذا ما يحز في نفسي !

أحد الحاضرين : لقد سمعنا انهما خرجا في هذا الوقت بالذات دون أن يقدم لهما أحد جرعة ماء يبلان بها الريق وقت آذان المغرب ! وهذا لعمري خروج على تقاليدنا وعاداتنا .

صاحب الدار : أرجو الله ان يغفر لي هذا السهو المعيب .

شخص آخر : أما كان الأجدر بـه وصاحبـه ان يختارا الـوقت المناسب للقدوم بدلا من هذا الوقت الصعْب ؟

رب الدار : على كل فقد عـوضناهمـا عن شربـة الماء ، حبـا ومناصرة والتفافا . .

أحدهم ملمحا : أخشى يا عم ان يذكر عنا التاريخ اننا لم نقدم شربة الماء هذه ، فتكون الوصمة والنقيصة . . . .

رب الدار : سيذكر التاريخ ان في رحاب هذا المنزل وذات ليلة في هذه البلدة انطلقت شرارة النضال الأولى ، وكفى بلدتنا فخرا ان مؤتمرا مصيريا كالذي دعونا اليه سيعقد في رحابها أيضا . . وما عدا ذلك فهو حديث ذكريات . . . . ومن الذكريات ما هو حلو ، ومنها ما هو طريف ومثير ، !

أحدهم : لندع ما للتاريخ للتاريخ . . . ولقد اقنعتمونا بضرورة مساندة هذا الشاب والخروج بالحركة الى مجال جديد رحيب .

صاحب الدار : هذا هو المهم في الأمر . . . ولقد شغلنا على القشور باللب ، وقد علت الفرحة كل الحاضرين بالأمس حتى أنهم حملوه على الأعناق .

أحدهم : المهم انّ لا تختلط المقاييس ، ولا أخال الشاب وصاحبه الا فرحين مسرورين بلقاء الأمس وما أسفر عنه من نتيجة !

صاحب الدار : ان علينا ان نهيء لهذا المؤتمر ، فموعده وشيك وعلى كل منا أن يحرص على حضوره ، وان يحث غيره على هذا الحضور . . . فالأمر بات رهن ارادتنا نحن معشر المناضلين وسوف يكون مؤتمرا عظيما . . . .

أحدهم : هل وجهتم الدعوات الى كل الاطارات في الشعب .

صاحب الدار : . . . . أجل ، ودعونا كذلك اعضاء اللجنة التنفيذية !

أحدهم : قد لا يحضر منهم أحد . . . . فسطور هذا المنشور تدل على عداء مستحكم .

أحدهم : بل تدل على غباء مستحكم . . . انها لفرصة تاريخية متاحة للتخلص من هذه اللجنة . . . . من هذا الطاغوت الذي يتزيا بزي النضال بهرجة واصطناعا .

رب الدار : ان ما حدثنا به المحامي الشاب في تلك الليلة المباركة ، وأفاض قد فتح الأعين والبصائر على حقيقة الأزمة التي تعاني منها الحركة الوطنية ، فالأزمة بحق كامنة في عقول اعضاء هذه اللجنة . . . . بل وفي نفوسهم أيضا . . . .

أحد الحاضرين : ليذهب هؤلاء الى الشيطان ، فالنضال ليس وقفا عليهم والوطنية ليست مظاهر . . . ولا تصريحات . .

أحدهم : لقد آن أوان محاسبتهم على ما فرطوا في حق هذا الوطن . . . . .

رب الدار : يكفي ان نطرحهم جانبا ونواصل الكفاح بنفس جديد ، وهذا ما أدركته من خلال أحاديثنا مع صاحب الانشقاق المبارك .

أحد الحاضرين : لقد أصبح الوطن في محنة دائمة لم يخرج منها منذ محنة محمد علي . . . . وعسى الله أن يعوضنا خيرا بهذا الشاب ، فأنا لن نجني منه إلا خيرا . . . .

(أحد الذين كانوا متشككين منذ برهة) :تبا لظروفي عند ذلك الموعد ، فلقد حالت بيني وبين حضور جلستكم . . . .

رب الدار : على كل حال ، لم يَفُتْكَ شيء ، وبامكانك الحرص على حضور المؤتمر وسماع بيانه للناس وللمؤتمرين .

البعض في نفس واحد : لم يبق إذن الا ان نحرص على الحضور عندما يحدد تاريخ هذا اللقاء ، فالمؤتمر هو بغيتنا منذ اللحظة ، وهو بداية النهاية . . . .

الجميع : إلى المؤتمر . . . . إلى المؤتمر ! . .

ستار .

انتهت

تم طبع هذا الكتاب في شهر جوان 1986 بمطبعة
شركة فنون الرسم والنشر والصحافة .

في سطــور



يُحاول المؤلف في هذه المسرحية أن يكشف عن المعنى العميق لفترة مصيرية من تاريخ تونس المعاصر ، جرت أحداثها بتدبير مبيت من رهط الاستعمار والصليبية ، كادت أن تقضي على الشخصية العربية الإسلامية التونسية نهائيا لولا يقظة شاب أراد أن يخلص بلاده من الذُّل والهَوان ، وهو يرى وطنه وشعبه يهيآن للإبتلاع والذوبان .

لقد كانت فعلاً فترة أوائل الثلاثينات وما قبلها بقليل من هذا القرن مليئة بالتحديات الإستعمارية لشعوب شمال إفريقيا ، ففيها صدر الظهير البربري بالمغرب ، وأعيد تشخيص الإنزال البحري العسكري بشاطىء سيدي فرج بالجزائر ، إحتفالا بمرور قرن على استعمارها ومحاولات مسخها ، وأقيم المؤتمر الافخارستي بتونس إحياء لروح الصليبية التي كانت قد هزمت فوق هذه الأرض منذ حملة لويس التاسع الظالمة ، وصادف هذا المهرجان الصليبي مرور خمسين سنة على الإحتلال .

وفي هذه الفترة أعيد نفض الغبار عن قانون إستعماري قديم كان قد صدر في السنة الثالثة والعشرين من هذا القرن بفرنسا ، يبيح للتونسيين الحصول على الجنسية الفرنسية ، فبدت كل هذه التحديات أمام المحامي الشاب الحبيب بورقيبة غاية في الإستهتار والتحدي والغطرسة ، وبداية لمؤامرة دنيئة أخرى يقهر فيها الشعب ويقبر ، فقاد معركته الشهيرة ضد التجنيس ، فكانت أولى معارك الحرية التي انتصر فيها ، وفتحا لكل إنتصاراته العديدة المتعاقبة .

ولد مؤلف هذه المسرحية بمدينة بنزرت ، في 25 ديسمبر 1944 ، وهو محرز على الإجازة في الحقوق وأخرى في علوم الأخبار وهو من خريجي المرحلة العليا بالمدرسة القومية للإدارة ، ومحرز اليوم على درجة متصرف عام بالإدارة التونسية .

إنخرط في الحزب الإشتراكي الدستوري سنة 1961 ، وباشر مهام سياسية عديدة على المستويين المحلي والجهوي .

أنتخب عضوًا بالمجلس البلدي ببنزرت سنة 1969 ، وعضـوا بلجنة التنسيق الحزبي بها سنة 1972 ، كما كلف بمهمة في اللجنة المذكورة . ثم عيّن من قبل الديوان السياسي رئيسا لمصلحة التوجيه وتكوين الإطارات بالإدارة المركزية للحزب سنة 1973 .

في سنة 1975 أسس الأسبوعية الجهوية « أحداث الشمال » وسنة 1976 عيّنه المجاهد الأكبر مديرًا لمجلة « ديالوغ » ثم مديرًا لجريدة « لاكسيون » منذ 1981 .

وفي هذه السنة أيضًا أنتخب عضوًا بمجلس النواب ، ثم رئيسا لبلدية بنزرت في ماي 1985 .

وفي جوان 1986 عينه المجاهد الأكبر عضوا باللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الدستوري كما انتخب في نفس الشهر رئيسا لجمعية النادي الرياضي البنزرتي .

له مؤلفات ودراسات عدة ، منها كتاب « البورقيبية أو معركة المستقبل » باللغة الفرنسية وكتاب « بنزرت عبر العصور » باللغتين العربية والفرنسية ، ومؤلف بعنوان « الإدارة التونسية إزاء المتغيّرات » باللغة الفرنسية وآخر بعنوان « الصحافة التونسية ، المشكل الحقيقي » ويُعد في الوقت الحاضر كتابا « في معنى الكيان » باللغة العربية ، وآخر عن المؤرخ الفرنسي « جان روس » صديق المجاهد الأكبر .

والمؤلف عضو باتحاد الكتاب التونسيين .